



ما رواه النوم

رواية

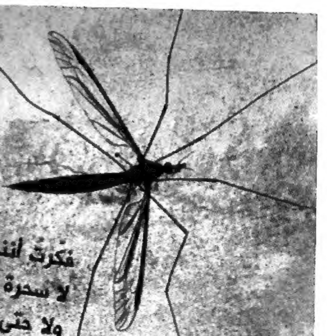
هلال شومان















فكرت أنني أستطيع أن أخلق مشهداً ملحمياً ابتداءً من جورب معلق على حبل غسيل.
لا سحرة ولا غجر ولا بطريرك ولا جنرالات ولا شيء،
ولا حتى مدينة متخيلة أو قرن يمر على العائلة الموصوفة. لا شيء من كل هذا.
فقط جوارب، والأرجح أنها مخططة و.. مبللة.

ما رواه النوم

(رواية)

هلال شومان

ما رواه النوم

(رواية)

الطبعة الأولى نوفمبر 2008

رقم الإيداع: 2008/20897

I.S.B.N: 978-977-6262-38-6

تصميم الغلاف إهداء: **أحمد عبد الله**

غرافيتي تعابيرالوجوه لـ: **حامد سنّو**

رسوم الغرافيتي المستخدَمة في الغلاف موجودة في جوار الجامعة الأميركية في بيروت

دار ملامح للنشر

٢ ش الديوان –جاردن سيتي – القاهرة

تليفون: ٠٢ - ٢٢٧٩٤٩٨٨٥

E-mail info@malamih.com

Website: www.malamih.com

المدير التنفيذي: **محمد الشرقاوى**

قسم النشر **أحمد ناجي**

ما رواه النوم

(رواية)

هلال شومان


ملامح

-١-

أفيش فيلم «Hard Candy» ينظر إليّ وأنظر إليه.
قصص وأحداث طفولتي لا تفارق رأسي. عالم خاص يبدو بعيداً جداً. يلفه الضباب. هذا السحاب الأبيض البارد يغطي أجزاءً، ويظهر أخرى بلا أي أسباب مقنعة.

هنا في الملصق الرمادي، تقف ذات الرداء الأحمر فوق فخٍ حديدي كالذي يستخدم لصيد الأرانب. هل ترى الأفكاك الحديدية المسننة، وهي تدير ظهرها؟ تبدو ناظرةً للبعيد، وهي تحمل حقيبتها. من ينظر إلى البعيد، لا يرى الأرض تحت قدميه. يتخطى التفاصيل. التفاصيل تقتل أحياناً.
هل تطبق أسنان الفك الحديدي على ليلى وردائها الاحمر؟
لا أعرف. أنا فقط مستلقٍ في السرير لم آكل شيئاً منذ البارحة. أشعر أنني تعب جداً. كأنّ الدم ينقصني. أتفرج على التلفزيون. أقلب بين قنواته وأعود دائماً لقناة الرسوم المتحرّكة. يعيدون عرض كل المسلسلات التي كنت مدمناً عليها في الثمانينات وأنا بعدُ طفل. عندما أعود لأشاهد هذه المسلسلات، أكتشف كم صعّب اليابانيون الحياة على الأطفال. كل شخصياتهم مأزومة تعاني من فصام اجتماعي وعائلي ما: إما يتامى يعيشون في كنف عائلة أخرى لا تحبهم، أو يبحثون عن عائلاتهم المفقودة، أو مضطهدون..
كنتُ سيء الحظ. دائماً أفوّت الحلقات الأخيرة. يبقى استيعابي

الطفولي للشخصيات متوقفاً عند أزماتهم المعقدة التي لم تـحَلّ، ولم تكن لتساعدني الأوضاع السياسية المحيطة. هذه الحرب الهوجاء لا تنتج إلا أطفالاً مأزومين يلفّهم التوجّس.

ومع أنني لم أرَ ميتاً واحداً بأم العين لأنّ والديّ أبعدا -قدر الإمكان- مؤثِّرات الحرب عني، لكنني كنت أعرف بأنَّ هناك حربا دائرة في الخارج، وأسمع أصواتاً قوية، وأهرب إثر انفجار قريب إلى الملجأ إن وُجد (وهو في الغالب لم يكن متواجداً)، أو ننزل إلى الطابق الرابع في بنايتنا حيث نلتقي بالجيران الآخرين. ما زلت حتى الآن لا أعرف مدلولية هذا الطابق. طفلاً، كنت أظن أن البناية إن استهدفَت بطيارةٍ ستسقط الطوابق بأكملها وتتهاوى ركاماً حتى الطابق الرابع، وعند هذا الطابق يتوقف الهدم والخراب، ونسلم جميعاً. هكذا كنت أظن. أما الآن، فلا أعرف. لا أعرف شيئاً.

أعرف فقط أنني في طفولتي استحضرْت كل تلك الشخصيات مراراً في خيالي المرئي، فوضعْت السوريين مثلاً في المركبات الفضائية التابعة لجيش علام الأخضر، الشرير الأكبر في مسلسل «عدنان ولينا». كنت ألمحهم في البراندة - في خيالي المرئي- وأصرخ لأمي بأن تأتي لتراهم. تأتي وتسأل ما الأمر، فأشير بالبَنان إلى السوريين الخضر في المركبة، وأصرخ: «جايين لَينا يا ماما!» أمي كانت تضحك وتقول:

«يا إمي، ما السوريين معنا! شو مخوّفَك منن؟»، ثم تذهب لتكمل الطبخة على النار، وأبقى أنا في مواجهة جيش علام.

الدَرَج المظلم؟ كنت أجزم أنّ عون أو جعجع ينتظرانني في فسحة كل طابق. كنت أصعد الأدراج مسرعاً وتزداد سرعتي عندما أصل فسحة الطابق لأصعد الدرج إلى الطابق التالي. جعجع لا ينتظر على الأدراج، وكذلك عون. لهم الفسحات فقط، ولن يستطيعوا اللحاق بي إن مررت في فسحات الطوابق بعجلة فائقة.
تسقط قذيفة فيقول لي محمد شامل: «الدنيا هيك!». تتهاوى بناية قريبة، فتعيد زمرد أو وردة أو عزيز السلمنكي سؤاله: «طب ليش يا مختار بصير هيك؟»، فيأتيهم الجواب ذاته: «الدنيا هيك!» نسمع صوتاً مهولاً فيسأل كوكو المثليّ والعلكة لا تفارق فاهه بالفرنسية عمَّ حصل. يشتمه علوش مجيبا:
«إيه حمَّى تسلقك سلق إنت وياها!» ثم يحضر المختار ويعيد جوابه في نهاية كل حلقة: «الدنيا هيك!» ويضحكون، وأضحك. وأخاف. أخبئ وجهي بكفيَّ لما أشاهد الإعادة الثمانينيَة لـ «عشر عبيد زغار». يا للهول. قُتل عشرة في حلقات المسلسل. قمة الرعب، كنت أفكر لم يكن ليخطر ببالي، أنه في خارج البناء هذا، يُقتل البشر والحيوانات بالآلاف يومياً.
أتوجّس من خيالاتي الشريرة، أحضن أمي وأقول لها:

«ماما لا تتركيني. لا أريد أن أضيع عنكما كما ضاع ريمي عن أبويه!»

وفي مرة، تخبأت في زاوية بيت ستي حتى لا تجدني أمي. عزمت أن أبقى لأبيتَ الليل عندها لتشربَني صباحاً قهوة عربية في صحن الفنجان، الأمر الذي كنتُ ممنوعاً عنه في البيت. لكنّ أمي فتشت كل الغرف بحثاً عني. نادتني مراراً حتى وجدتني.

«إنتَ مرابَط هون وأنا عم دوِّر عليك يا خرى! تعا لهون لشوف!»

خرجْت وأنا أرتجف خوفاً. كنتُ قد بدأتُ أتحدث الفصحى في البيت، لأنني لم أفهم لـمَ يعلموننا الفصحى في المدارس ونحن نتكلم العاميَّة في البيوت. قلت لها مقسماً: «والله يا ماما، والله يا ماما لست مرابطون!»

موحشة كانت طفولتي، لكنني على الأقل لم أكن أتبرَّز دما. هل مررتُ بكل ذلك صغيراً لألفظ الدم كبيراً عند تعرّضي لأقل ضغط أو أتفه حزن؟ أم أنّ كل ذلك أفضى بي لوضعي المتأزِّم هذا؟

لا. كل تلك الذكريات تقبع في خيالي المتوعّك، فقط. هنا داخل هذه الجمجمة. وربما كانت كاذبة أو على الأقل محرّفة لأنني أريد ربما أن أقنع نفسي، أن أردِّدَ وأُسمِع نفسي أنني لست المخطئ ولستُ المذنب في كل ما مررتُ وما قد أمر به.

لكن النتيجة واحدة. أنا الآن منهَك، لم أبارح سريري منذ ساعات،

أقلّب بين ما بقي من تلفزيون لبنان وقناة الرسوم المتحرّكة الفضائية، ولن تساعدني قواي أن أبدأ كتابة روايتي الموعودة اليوم. الوهن يلف مفاصلي. أشعر أنني منتفخ رغم أنني لا آكل شيئا بل أشرب السوائل فقط.

البارحة مثلاً، شعرت بنبضٍ سريع لما صعدت الدرج إلى هذه الغرفة. درجات طابقين جعلتني ألهث كعجوز. أقول أنه الاكتئاب أو الضغط، ولا يلفتني مقدار الدم الذي أنزفه يومياً. أحياناً أتساءل كيف أن وجنتيّ ما تزالان تمتقعان بالقاني مع كل هذا الدم الذي أفقده. من أين يأتي كل هذا الاحمرار؟ أفكّر أنني في يوم ما سأتبرّع بالدم من وجنتيّ لا من زندي!

أريد أن أكتب رواية. عزمت وتوقفت عن القراءة. قلت أنني سأتوقف عن القراءة لشهر على الأقل قبل بدء الكتابة. لا أريد أن أتاثر بأحد، أقنعْت نفسي. جعلْتُ أضبّ الروايات المصفوفة في الرفوف الخشبية في صناديق كرتونية. العناوين تذكرني بمضامينها. بجمل منها. بأفكار ما. بنَفَس ما. بأساليب كاتبيها. هذه الفترة للتخزين. سألاحظ الأشخاص أسفل نافذتي الموجودة على يميني. البائع الذي يصبِّح على جاره علانيةً ويهمس شاتماً لما يدخل إلى محله. نسب التنزيلات الملصقة على واجهة محلات الألبسة وهي تكثر وتقل، تكبر وتصغر. زمير أبواق السيارات وزحمة الشارع. النزلاء في الفندق المقابل وهم يغلقون ستائر غرفهم. أسراب الحمام في سماء الشارع الضيق، تمر سويةً وترحل معاً بإشارة من رجل على سطح بناء قريب. تلك الجارة التي لا تنتبه إلى الستارة المفتوحة إلا بعد أن تخلع بنطالها، ويبين لباسها الداخلي. طاولة الطعام التي يتجمع عليها أفراد عائلة من ذووي الملامح الصامتة. الولد الشقي الذي يدخل رأسه في فتحة الدرابزين الحديدي وينادي لأخته كي تساعده في إخراج رأسه الذي علق. عادةً ما يستغرق الأمر خمس دقائق قبل أن تدخل الفتاة لتخبر أمها وتأتي الأم مستشيطة غضباً. سأشاهد الخادمة، سريلنكية الجنسية، وهي تتواصل مع صديقتها السريلنكية في البناية المقابلة. الكلمات في لغتهما الهجينة تمر في الفضاء بين البنايتين.

سأتابع «سيدتها» وهي تخرج مجابهةً إياها بشتائم من العيار الثقيل، لأنها «تقلل من مستواها».

أهرب من يميني إلى الحائط أمامي لأعثر على وجه نيكولاس كايج في «Adaptation». وجهه إناءٌ زرع أسمر اللون. تعابير وجهه تشي بالاستسلام. النبتة خضراء تحمل زهرتين على حافة الذبول، ربما ذبلتا بعد أن صوَّرهما المصور أو بعد أن رسمَهما على الكمبيوتر، لست أكيداً. أراهما فقط ناضجتيْن.

أرى كل ذلك، قبل أن أغلق الستائر في حجرة الفندق الكريهة المنظر التي أعتدتها منذ زمن طويل. أنهمك في ضبضبة كتبي التي جلبتها معي، محاذراً النظر إلى العناوين أو أسماء الكتاب، لكنني لا أستطيع إلا أن أنظر. أضع كتب ربيع جابر وأمين معلوف وميلان كونديرا وألبير كامو وكافكا وساراماغو وموراكامي (إلخ، إلخ، إلخ..) في الصناديق الكرتونية البنيّة. تسقط بعض ملاحظات من الكتب فأقرأها وأسترجع لحظات كتابتها كأنها الآن. أقرأ بعضها، ثم أعيدها إلى أمكنتها في ثنايا الكتب. ألمح بعض الاهداءات أو التواريخ التي اشتريت فيه الكتب. ألمح كل ذلك لدقائق، وأمضي في كسلي الهادئ قبل أن أقرر أنه عليّ الإسراع.

وجه نيكولاس كايج إناء زرع أسمر اللون. إناء الزرع مكسور من الأسفل، يلفظ تراباً بنياً حد الامتقاع. إناء الزرع مكسور، وجه نيكولاس مكسور. الكسر طاول فمه وذقنه. لا أعرف إن كان يضحك، لكن عينيه المحايدتين تنحّيان احتمالاً كهذا.

أنا أيضاً سأكون محايداً لحظة أبدأ الكتابة. سأتوقف عن سماع الموسيقى أيضاً. لا أريد موسيقى خلفية لنصوصي. لا أريد لنصي الذي سأكتبه الآن أو بعد قليل أو في الغد أن يتأثر بما أسمعه. سأتجنب النظر إلى أكوام الأقراص المدمجة الموسيقية التي تستقر في زاوية قريبة مني. لن أسمع زياد رحباني فأنتج نصاً ساخراً، أو سعاد ماسي فأخرج بنص نوستالجي، أو ريما خشيش لألبس الأفكار القديمة حللاً جديدة. لا أريد جنون غوران أو انسيابية صوت عزيزة مصطفى زاده أو شرقية الموسيقيين التقليديين، أو غرابة موسيقى الراي، ولا حتى تفاصيل فيروز الزيادية البسيطة أو ميلوديات الرحابنة. لا تعنيني كل هذه الموسيقى. هي غريمتي الآن. أهرب من سُلطتها عليّ. لن أتوقف فقط عن سماعها. لا. بل سأتوقف حتى عن إعادة استحضارها: سأتوقف عن الدندنة! أعرف أن عملية الهرب هذه جد متعبة. لم يُكتب قط نصّ في الدنيا إلا وكان له موسيقاه الخلفية. أنا أجزم بذلك. بل أتحدى كل من كتب حتى الآن. لكن لا. سأكون الأول. سأكتب الجديد. لا أصدق من يقول أن كل الأفكار قد طُرحَت في هذا العالم وأننا فقط

نوضب الأفكار ذاتها في أشكال جديدة. معتوه وفاشل من يقول ذلك. يبرر. فقط يبرر فشله.

وجه نيكولاس كايج إناء زرع أسمر اللون. إناء الزرع مكسور من الأسفل، يلفظ تراباً بنياً حد الامتقاع. أفكر أن التراب هو بديل فني غير مقزز لنخاعه المضبوب في جمجمته. أفتش عن ديدان في التراب الخارج من أسفل الإناء المكسور. لا أجد حتى دودة واحدة. هذا ترابٌ معتنى به وغير مهمَل، أفكّر.

أعود فأفرغ محتويات الرفوف الخشبية ووأكوام الأقراص المدمجة على السرير بإهمال شديد، وأبدأ بفرزها. أصاب بالملل بعد التوضيب المرتب الذي بدأتُ به عمليتي هذه، فآخذ أرمي كل ما تقع عليه يداي في الصناديق. أطفئ التلفاز بالريموت كونترول القريب مني. أقذفه بلا اهتمام ناحية الكنبة، ثم أعود فأتجه إلى الستائر الخضراء الباهتة، وأفتحها. أحدّق بفتاتين تستمتعان بنسمات ما قبل المغيب.

أنحني، ثم آخذ تي-شيرتاً مهملة مرمية على الموكيت في زاوية قريبة. ألبسها لتغطية جذعي العاري المترهل. أفكّر أن الفتاتين لا تهتمان لرؤيةٍ بشِعة كهذه. فلأتفادى إحراج نفسي.

وجه نيكولاس كايج إناء زرع أسمر اللون. وضعية الإناء تشي بالإهمال. ملقى هناك بلا اكتراث يتفرّج على ظله الثابت المعتم فوق بياض الملصق. كايج رمى إناء الزرع الأسمر. رمى وجهه. انكسرت جمجمته، وفاض منها النخاع -أقصد التراب- فأخفى بعض الظلال.

وأعود إلى النافذة. لون المغيب يغطي بعضاً من السماء. أحدّق أكثر بالفتاتين اللتين تنظران إلى حركة الشارع. لا تعجبانني. ألتفت لأعود إلى سريري فأواجّه بسؤال.

شو عم تعمل؟

ديالا عند باب الحجرة، تحمل أكياساً بلاستيكية مليئة بأغراض السوبرماركت القريب.

تعا احمول عني!

-٣-

تموضعَت ديالا في حجري على السرير، أخذَت من يدي كأس النبيذ ووضعَته على الكومودينة المجانبة. «خلص شرب بأى، ما بيسوى لصحتك». قالت هي، وأطعْت أنا. وضعَت رأسها في حضني وهي تنظر إلى وجهي ثم رسمَت تلك الابتسامة الغريبة وظهر لسانها من جانب شفتيها. تذكرني حركتها هذه بطفولة أختي. كانت كلما تجلس لمشاهد مقدمة المسلسل الكارتوني «بل وسيباستيان»، تعضّ على لسانها وتظهره خارج فمها. تفعل ذلك خصيصاً لدى لفظ اسم «بل»، فيخرج معها الاسم بلـ «لاء» مشددة لا تنتهي: «بلللل».

«Paris, Je t'aime.»

باريس، أنا أحبّك. القلب أحمر احمرار خديّ الخجلتين. القلب أحمر احمرار دمي الملفوظ من جسدي. القلب مصنوع من خوازيق حمراء. الخوازيق الحمراء تحدد القلب وشكله. أتمعّن أكثر في الأفيش: أضحك لتفاهتي. هذه ليست خوازيق. هذه نسخ لا متناهية من برج إيفل الفرنسي. القلب يبدو كالشمس: أحمر لكنه يخرج إشعاعات برتقالية، شيء ما أشبه بابتسامات متنوعة وكثيرة لوجوه غير معروفة.

ألاحظ ذلك، وأبتسم لها، وهي تنظر إليّ بالمعكوس، تماماً كما أفعل أنا. أدع أصابعي تتغلل في شعرها فلا تعلق في ثناياه كما العادة. أمر بأناملي على شامتها الكبيرة المتواجدة على صدغها الأيمن. أتعمَّد الثبات بأصابعي هناك بهدوء محسوب ثم أدور بأصابعي على المحيط الصغير لهذه الشامة. أحب هذه الشامة. قلت لها مرة أن شامتها مزروعة في الصدغ. على هذه المساحة من الرأس أطلق مشاهيرّ الرصاص من مسدساتهم وأرْدوا أنفسهم قتلى. تضحك، وتطلب مني أن أنحي هوسي الأدبي والتاريخي جانباً، لما أكون معها. «عالقليلة هلأ»، تقول.

الشامة على الصدغ تبرز وتخفت تحت أناملي. لا. إنه جسد ديالا الذي ينخفض ويعلو. عيناها مغمضتان. إنها تحظى بحلم يقظة، بشيءٍ من نشوة. أكمل لمساتي المحسوبة للشامة ثم أتوقف فجأة. تفتح عينيْها وتنظر إليّ صامتةً للحظة كأنها تسألني لماذا توقفت. لا أجيب. أنطلق تواً إلى الحمام تاركاً إياها في السرير

«شو فيه؟»، تناديني من الخارج فلا أرد.

أقف أمام مرآة الحمام، أتفرس في وجهي، في وجنتيَّ الخاليتيْن من أي حمرة. وجنتاي ليستا متضرجتيْن بالدم! لكنني كنت مستمتعاً للغاية وأنا أحضنها! حقاً؟ هل كنتُ حقاً مستمتعاً؟

تباً. يبدو أنني أعتادها. الاعتياد قاتل ماكرٌ للحب. ينسلُّ في موقع الجريمة بهدوء غامض. لا يحس الفرد بوجوده إلا بعد فوات الأوان. أنا حدسْت به في لحظاته الأولى. كنت أستمتع مع ديالا في السرير، أتلمس شامتي المفضلة -أقصد شامتها-. لم أشعر بحرارة خدَّيَّ التي تعودت على الإحساس بها لما أستمتع أو أتحمس أو أضحك أو أبتسم.

ركضت إلى الحمام يسكنني جنون الفكرة: أنا أفقد الحب!

فزعْت. ماذا أفعل؟ لا أريد أن أفقدها. لا أريد أن أخسر ذلك الشعور معها. أستطيع أن أفقده وأن تبقى إلى جانبي لكنني أريدها هي وذلك الشعور اللذيذ معاً. بل ربما أريد ذلك الشعور قبل ان أريدها هي كمحضِ جسد.
«فيه شي؟ مضايق حبيبي؟»، يأتيني صوتها من الخارج، من خلف باب الحمام المغلق.

باريس، أنا أحبّك.
أفكر بالحب. أفكّر ببرج إيفل. أفكّر بالخوازيق.

أخرج من الحمام. أعانقها وأبتسم حتى تتكئ ذقني غير الحليقة على كتفها. عندها، أتخلّى عن ابتسامتي، كمن ينظر إلى عدسة

كاميرا في مسلسل رديء الصنع، ويودّ أن يوضح للمشاهد أنه تصنَّع ابتسامته قبل لحظات وأنه الآن يفصح عن شعوره الحقيقي. لا أرى كيف يبدو وجهها وهو متكئ على كتفي، ولكنني أستطيع أن أخمن. صرتُ أعرفها أكثر مما ينبغي.

أصبْت بالقولون العصبي في العام الذي سبق بداية علاقتي الفعلية بديالا. أصبت بالمرض ولم أعرف. وازداد الأمر سوءاً وأنا معها. كنت أنظر إلى كرسي الحمام بعد كل تغوُّط مليئا بالدم. كنت أزور والدتي وكشفني وجهي أمامها. ظهر الضيق واضحاً في ملامحي. اقتربَت مني وسألتني: «مضايق؟» قلت لها: «إي». طلبت مني أن ألحق بها إلى غرفتها لنتحدث بالتفاصيل. تركنا بابا على البراندة يشرب قهوته ويقرأ جريدة «النهار». دخلنا الغرفة وأغلقنا الباب، وقبل أن نتحدث، ابتدأت أمي حديثها بالأسف على حال والدي والتأفف من معاملته لها ومن اكتئابه الواضح. شتمَتْه قليلاً. أفرغَت شحنتها من الضغط ثم سألتني ما بي ببشاشة غريبة، وكأنّ من كان يشتم للتو كان شخصاً آخر. شرحْت لها تفاصيل وضعي الصحي مستخدماً عبارات متحفظة كتلك التي يستخدمها الأبناء مع الآباء. ولما سمعَت، ابتسمَت وقالت أن هذا أمر بسيط ووراثي، وأن «للبواسير تاريخ في هذه العائلة الكريمة وخاصةً عند أبيك». شتيمة أخرى، ثم نداء لها من الوالد في الخارج، فإجابة صارخة منها له بأن «يلا جاية حبيبي»، وانتهى لقائي مع الوالدة. عرفت حينها أنّ اليوم يتسع لأكثر من شعور متناقض بين الأحياء.

هكذا صرتُ أركض إلى باب الخلاء من خمس إلى سبع مرات يومياً. أحس بضغط نفسي فيلفظ مصراني دماً. أشاهد قناة الجزيرة

فأتغوط. أحضر الأخبار المحلية فأتبرز أشاهد المجزرة فأضيف دمي إليها في كرسي الحمام. أشارك بدوري في القضية. أتعارك مع أحدهم كلامياً فأشعر بمصراني منفوخاً من لا شيء وأفتَش عن أقرب حمام. الغائط ممزوجاً بالدم. مقززة هي هذه الصورة، لكنها صحيحة رغم قرفها. حياتنا أحياناً تصبح غائطاً بدماء.

كنت زائد الوزن لما بدأت علاقتي مع ديالا. أسرَّت لي أكثر من مرة أنها تحبني هكذا. تضحك وتقول أنني أذكرها بممثل دعاية ملاءات «سليب كومفورت» التلفزيونية وهو يرقص عارياً إلا من لباسه الداخلي قبل أن يندسّ تحت ملاءات السرير وينام.
أنا الدب الشبيه بدب إعلان «سليب كومفورت» المتثائب، ألفظ الدماء أكثر وأزداد نحولاً منذ أن تعرفت على ديالا

تسألني إن كان بي شيء فأشير بالنفي. أقول لها أنني أستعيد حجم جسدي الطبيعي الذي فقدْته منذ أعوام. لم أخبرها لها أنني في تلك الأعوام، انشغلت بلذة الأكل حتى عن الجنس. قضيت الأعوام أراقبها وأتحسّر قد أكون سجلت في «الماسترز» ذاته لأتفرّج عليها تروح وتجيء أمامي مع ذلك المخبول الفاشل. لم تكن يوماً الدراسة الجامعية عائقاً أمامي. برغْت فيها بعكس دراستي المدرسية. برعت فيها لدرجة أنني ضمنياً كنت أسخر من أولئك الذين يجدون صعوبةً في تحصيل العلامات.

أضعْت أربع أعوام وأنا أنظر إليها من بعيد. أربع سنوات قضيتها في الأكل حتى التخمة والعادة السرية وقمع الذات والشتائم الصامتة والعلنية. يا لبلاهتي. أربع سنوات من لا شيء غير الدراسة وجلد الذات وتورد الوجنتين. أكاد لا أصدق هذه البلاهة! استغرقت الكثير من الوقت لأصل إلى هنا.

هذه دماغ أخرى. أفكّر وأنا أتمعّن في هذا الملصق: «الشروق الأبدي للعقل الخالي من البقع». تبدو ترجمة العنوان العربية الحرفية مضحكة. لكنني أجزم أن لديّ الكثير من البقع السوداء داخل هذه الرأس.

هنا النصف العلوي من وجه جيم كاري في يسار أسفل الملصق. عيناه تنظران إلى القسم الأيمن العلوي من الملصق. هناك، يستلقي هو وكايت وينسلت على طبقة من الجليد غزتها الشقوق. هو ينظر إلى كل هذا الجليد في عقله. إنه عرضة للكسر، وذكرى الاستلقاء سيبتلعها الأسود. البقع ستختفي. البقع هي المشاهد، الذكريات. ليست سيئة تماماً، لكن ناتجها النهائي صار أسوأ، وعليه فقد جنت الخاتمة عليها. وعليه، سيتم تهميش الجليد ومحوه من العقل قريباً.

حبـّنا جليدي. لا تدع ديالا يدي تنزلق إلى تحت. تنظر إليّ بشيءٍ من تأنيب، وتفوح رائحة العرق اللزج الخفيف الذي بدأ ينفر من ثنايا تجاعيد رقبتها. تطلب مني أن أبقى في الأعلى. أن لا أصل أسفل سرّتها. ألتزم، وتنتشي. أكتفي بالعنق والثديين لكنني أثق أن فرجها يفرز افرازات من النشوى في هذه اللحظة. أفكَر برائحة هذا العرق السفلي. أكاد أشتمّه. لا أغمض عيني لما أفعل ذلك.

أنظر لها وهي مغمضة العينين تنتشي. وفي لحظة ما، تفتح عينيها وتسألني إلامَ أنظر، فأضحك بدوري وتتورّد وجنتاي.

ننتهي من جنسنا غير الكامل. تطبع قبلة على خدي وتتجه للحمام. تغتسل من إفرازاتها وتحرص لمّا تنتهي على أن لا تخرج عارية. حتى أنها لا تسمح لي بدخول الحمام وهي تستحمّ. لا أذكر أنني رأيتُها عارية تماماً. رأيْتُ أجزاء من جسدها صدفةً أو في خلال مداعباتنا الجنسية. ركنْتُ هذه المشاهدات في رأسي. كونت الصورة التي لم أراها بوضوح حتى الآن: صورتها العارية. استدعيتها أكثر من مرة وأنا أمارس عادتي السرية. لكنني في كل مرة كانت تتراءى لي، كنت أطردها من خيالي. لسبب ما، كنت أشعر أنني أسطو على علاقتنا. هي لا تريدني أن أضاجعها الآن، وأنا لن أفعل ذلك ولو خيالاً. سأكتفي بنصف جسدها العلوي في خيالي. لا أشكو من شيء. ولن يشكل لي خياري هذا عائقاً أمام لذتي السرية. أمتلك فانتازماً مريضاً يكفي لاستدعاء كل من يثْرَنني من المشهورات. ولن تزداد نشواي أو تقل لحظة يقذف عضوي. ستبقى هي هي.

قلـّت عدد المرات التي أصبحت أمارس فيها العادة السرية منذ أن ابتدأتُ علاقتي بديالا. لم أعد أستسيغها. لا أعرف سبباً محدداً لفقدان الشهية هذا. لكنني لم أتضايق، وقد وجدْتُ ذلك غريباً

للغاية. خاصةً أن الجنس الفعلي الذي كتُ أقيمه مع الشراميط لم يزدَدْ، بل خفت وتيرته أيضاً نوعاً ما. لا أعرف سبباً مقنعاً لما حدث. هل أمرُّ بحالٍ من الاكتئاب؟ لا. على الإطلاق. أنا مرتاح ومبسوط. أنا مفتون بفتاتي الصغيرة التي كنت ماضياً أراها تكبر بعيداً عني.

لا تدعني ديالا أنام معها. تحفظ نفسها لليلة الأولى، ربما. قالت لي غير ذات مرة أنها ستكون معي. لا أعرف إن كانت تقول الجملة ذاتها لذلك المخبول الذي أبعدها عني لأربعة أعوام. لكنها قالت لي مرة إنها لم تسمح له حتى بتقبيلها. ومن لا يقبِّل، لا يصل لمرحلة زرع الوجه واستنشاق ما بين الثديَيْن. طمأنتني إشارتها، وفرحت بشتيمتي الضمنية من ذلك المخبول. فرحت لأنني حصلْتُ منها على حضن، على قبل، على عناق حميم، على مداعبة. حصلْتُ على ذلك كله بعكسه. جميل هو هذا الشعور بالتفوق، بل رائع.

إنتظرْتُها لأعوام. أراقبها. أراقبهما سويةً هي وصاحبها. وفي يوم، رأيتُها من بعيد في الجامعة الأميركية التي أمر بها مرتين في الأسبوع لأتابع فيها دروس «الماسترز». رأيتُه يشتُمُها ويحرك يديه بطريقة عصبية. استمر في صراخه في تلك المنطقة النائية من حرم الجامعة لدقائق ثم تركها. جلست تنظر إلى البحر الظاهر أمامها، وبكَت بحرقة. شعرْت أنَّ عليَّ ارتكاب جريمة. أردْت أن أحطِّم رأسه، أن أهشمه بصخرة على مرأى من الجميع ثم أبتسم

وأضحك عالياً. فيبتسمون هم معي ويضحكون، ونتناوب بعدها على ضرب رأسه المهشم بتلك الصخرة التي ستصطبغ بدمه الأحمر. يدير أحدهم موسيقى عالية تليق بمشهده البديع. وفيما يزفر هو زفرات الموت الأخيرة، نرقص جميعاً حوله. نرقص كبلهى يعرفون تماماً ما يفعلون، بعكس السائد. قتلناه وسنحتفل. وسأذهب بعد قليل وأدس قرص «الدي في دي» في الآلة المخصصة. أضيء التلفاز، وأجلس لأتفرج على فيلم لكوانتين تارينتينو الذي أبغضه. لكن لا يهم. يليق تارينتينو برقصة الموت الجماعي هذه. أطفئ الأضواء، وأحتفل. لا. لحظة. سأخرج. أعود إلى الباحة الخضراء في الجامعة الأميركية. أعتذر ممن لا زال هناك لأنني تركتُ الجثة، مهشمة الرأس ورائي. أعتذر منهم وأجرها ورائي وأعود بها إلى غرفتي المظلمة. أضعها بيني وبين التلفاز وأتركها تنزف وأجلس أنا على الكنبة غير آبه بها لمتابعة ما بقي من الفيلم. يبلل دم الرأس الكثيف البساط بين الكنبة والتلفاز، وأستمتع أنا بالفيلم أكثر لحظتها، لحظتها فقط، سأفهم صديقي تارانتينو.

لكنَّ هذا العنف كله لم يحدث. وددت حقاً لو أنه حدث. لكنني عادةً ما أود فعل الكثير وأنتهي بأن أكتفي بفعل القليل. خيالي مريض. لا. لم يصل لمرحلة المرض بعد. خيالي متوعك كما أسلفت سابقاً من دون أن أشرح-.

كل ذلك لم يحدث وأنا اكتفيْتُ بالمراقبة. أخذت أراقب جميلتي التي سأحصل عليها ذات يوم قادم في أعوام تالية.

راقبتها لأربعة أعوام. حصلْتُ على شهادتي في الأدب الانجليزي وأكملت دراستي للـ «ماسترز» وهي معه. يتحابان. يتخاصمان. يتعاركان. يشتمها. يعنِّفها. تصمت. يتصالحان. يتحابان...

أربع سنوات في الجامعة الأميركية قبل أن أتقدم منها وأدعوها إلى فنجان قهوة. أربع سنوات وأنا أشهد تغيير تسريحتها. دخلَت الجامعة بذيل حصان، ثم قصت شعرها وأصبحت تستعمل «الجلّ» -الذي أكرهه- لتظهر تسريحة أكثر جنوناً ثم أصبحت تتركه بلا ربط، جعلته يطول حتى أسفل كتفيها بقليل. أخذت تكبر مع كل تسريحة، وأخذت تخفت أكثر. صارت تتعب أكثر مع كل عراك. كنتُ أشعر بذلك.

في فترة ما، لم أعد أراه في حرم الجامعة. صارت تمشي الطريق إلى صفوفها وحيدة. أربع سنوات مرَّتْ. لن يحدث أسوأ مما حصل، فكرت.

تقدمت منها لأدعوها إلى فنجان قهوة.

نظرت إليّ وقالت نعم. على الفور! هل الأمر سهل لهذه الدرجة، تساءلت. «طيب. خليني جيب غراضي»، قالت. ثم استدركَت: «فينا نأجلها لبعد الحصة؟» إحمرَّت وجنتاي، وشعرت بمغض في مصراني العزيز، وعرفت أنها تعتذر مني بلباقة. ربما لاحظَت محيَّاي، وهربت من احمرار خديَّ الزائد، قُلت.

لكنني انتظرتها خارج المبنى، رغم خاطري هذا. ولما مرت الساعة، خرجت من المبنى الذي دخلتُه قبل قليل، واتجهَتْ تواً ناحيتي. «منمشي؟»، قالت. «بس لوين؟»، سألت باضطراب. نظرت إليَّ كأنها توقعت مني أن أقترح أنا المكان قبل أن تعاجلني: «قهوة؟ عند أبو ناجي لَكَنْ. منجيبها ومنجي منقعد هون بشي محل. «أوكي؟»
«أوكي».

مذاق قهوة أبو ناجي ما زال في فمي يا ديالا. تسنح لي الفرصة لما تبتعدين عن هذه الغرفة. أخرج وأقطع الطرقات ماشياً إلى دكان أبي ناجي. أطلب قدحاً من القهوة أو كوباً من النيسكافيه، بحسب المزاج. أطلب ذلك على غفلة منك. فأنت صرت تمنعينني عن الكافيين والأطعمة المهيّجة لمصراني وأنا ألتزم أمامك. أعرف أنني إن قاومت أمامك، ستعندين وتصلين لمرحلة منعي عن مشاهدة الأخبار.

البارحة شاهدت فيلماً أوروبي الصناعة. فيه يسأل الشاب المغربي نفسه: الجهاد أم الفرج؟ نظر إلى فتاته على الأرجوحة وفستانها يطير ليظهر شيئاً من لباسها الداخلي، ثم أمضى باقي الفيلم يؤكد على خياره: الفَرْج.

تبسيط لا ينتهي: الجهاد أم الفرْج؟ الجهاد أم الفَرْج؟ الجهاد أم الفَرْج؟

إسألوني مرة بعد وأنصاع للإجابة.

الجهاد أم الفَرْج؟

أنا أيضاً. أستبدل بلا أي ندم الأخبار بفرجها الذي لا تدعني ألمسه. تؤكد لي: «أول مرة رح تكون مَعَك». دائماً، أعتبر عبارتها هذه تلميحاً بالزواج ولا أعقب. ألتزم بالصمت. أشعر بخيبة أملها لمّا لا أبدي أي ردة فعل ظاهرة على تلميحاتها هذه. تفضحني حمرة خديَّ، أعرف. أشعر بحرارة جلدي. أعرف أنها تعودت على احمرار خدّي. لكنها لا تعرف أنني أتغوَّط دما كلما ألمحَت لي بالزواج. هل عليَّ فعل ذلك حقاً؟ أشعر بضغط نفسي كلما أسمعتني جمل مشابهة. هل ألهو معها؟ لا. لست بلاه. إنها حتى لا تقدم لي الجنس الكامل. أحصل عليه من غيرها -على قلته- وهي تعرف ولا تناقشني في الموضوع. لا تقترب من طرقه حتى. تعلم أنّ لديّ حاجات. تحترم أنني أحترم رغبتها بعدم ممارسة الجنس الكامل، أنني لا أجبرها على ذلك.

تقول أنها لا تريد أن تمارس العادة السرية. تخاف أن تفقد عذريتها. أضحك قائلاً لها أنها تبالغ. «حتى لو، ما بدي»، تضيف بحزم. هي تكتفي بالعرق اللزج الذي يصاحب جنسنا غير الكامل. تعلمُني أن إغماضة عينيها ستتيح لها تخيل ما لا تستطيع أن تفعله. «ما عم بفهمك»، أقول لها. «مش مهم»، تردّ.

شاهدت «The eternal sunshine of the spotless mind» مع ديالا ذات ليلة. نامت في حضني أثناء المشاهدة، قبل أن ينتهي الفيلم. بقيت أنا أتابعه حتى النهاية. لما انتهى، أعدتُه إلى بدايته وشاهدتُه من جديد. تركت ديالا حضني وهي نصف نائمة، واستلقت لتنام قربي على السرير

كنت مفتوناً بالفيلم، فلم أقبِّلها وهي نائمة كعادتي.

-٦-

أكاد أطلب من ديالا أن لا تخبرني تفاصيل يومها.

تأتي إليّ. تخلع شالها الملوّن الجميل وسكربينتها الزاحفة التي تشبه حذاء الباليرينا، وتضطجع قربي على السرير بتنورتها القصيرة وجواربها المخططة الملوّنة التي تصل حتى ركبتيها - ثم تبدأ باستحضار كل ما حدث معها. تتداخل الشخوص في رأسي. أُلبِس الحادثة التي تتكلم عنها ديالا لشخصية أخرى من مشاريع رواياتي القابعة في جمجمتي، فيعود إليّ الصداع.

هربْتُ منها أكثر من مرة إلى الحمام لأختلي بوجنتيّ ودمي وصداع رأسي الحليقة. كل مرة، آخذ أنظر إلى المرآة، أغضِّن حاجبيّ، وأكاد أصرخ آآآآه ثمّ أبتلع حبتي باراسيتيمول لن تأتياني بأي جديد، لأنني أعرف أن الصداع لن يخفت حتى أنام.

تطلب مني أن أنزل لأبتاع لها بعض الأغراض. أحاول التهرّب لكنها تصرّ. أعرف أنها تحاول إخراجي من هذه الغرفة قدر الإمكان. تظنّ أنها تساعدني بالخروج من عزلتي. لكنها لا تعرف أن لا طاقة لديّ بالتعرف على أناس جدد. تكفيني شخوصي على الورق.

لكنها هذه المرة، أصرت، فلم أستطع إلا أن ألبِّي طلبها.

دخلتُ المحل. التزمتُ بلائحة الأغراض التي أعطتني إياها كشاب تقليدي. زدْتُ عليها بعض علب شوكولاتة «كندر» التي اشتهيتها، ثم اتجهت إلى العجوز لأدفع ثمن كل ما ابتعته.

بدأ العجوز يتكلم ويخبرني قصصاً وهو يوضَب لي الأغراض في أكياس بلاستيكية شفافة.

نظرت له وأسكتُّه بجملة:

ما تحكيلي! يرضى عليك. ما تشكيلي، ببكيلك.

تغيرت تعابير وجهه وطلب مني ثمن الأغراض المشتراة «بلا نفس».

عدت. فتحتُ باب الغرفة ووضعْت الأغراض على الأرض. فتحْت الزرَّيْن العلويَّيْن لبنطالي -كعادتي- واستلقيْت على السرير تعباً. أتت ديالا. وضعت رأسها على صدري ثم رفعتْه.

فرجيني شو كتبت..

بعد ما كتبت.

دائماً تسألني السؤال ذاته، ودائماً أجيبها بالجواب ذاته. «هذا مشهد مُعاد، حصل قبل أكثر من مرة»، أفكّر فيما تعيد هي رأسها إلى صدري.

ثم تتلاطم كل مشاهد الشارع التي خزّنها رأسي. آآآه. الصداع، الصداع، الصداع! هذا الوجع الرأسي، هل هو نتيجة حتمية للتخزين المبالغ به؟ هل هو لوثة الروائي؟ أعاني من ذلك الفيضان في رأسي هذا. كل الأمور عندي تتحول لأفكار أو مشاهد. أحياناً أستيقظ قبل انبلاج الصباح، وأبقى في سريري في العتمة. أتحدَّث صامتا مع شخوصي الذين قابلتهم أمس كأناس عاديين. هؤلاء الذين سرقت منهم صفاتهم وألبستها لشخصيات افتراضية أخرى على الورق. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فأحياناً أتحدَّث مع أشخاص من حلمي الأخير! أنهض فجأة من سريري عاري الجذع، بالبوكسر فقط، إلى الطاولة. أفتح كمبيوتري المحمول الموضوع عليها، وأبدأ بكتابة ما أستطيع تذكره من مشاهد وأفكار ورؤوس أقلام غير مترابطة وتفتقر للمنطق. أكتب كل ما رواه لي النوم.

وبعدها علامَ يحتوي هذا المشهد المعاد من حياتي الرتيبة؟

تسير الأمور على النحو الآتي:
أنظر إلى السقف المظلم وأتجه بعدها إلى ستائر النافذة من جديد. أتفرَّس في عتمة الخارج، في قطة أو قطتيْن تعبران الشارع أو في سيارة مسرعة. ثم أعود إلى سريري. أبقى هناك بجانبها، أحدَق فيها وهي نائمة. أطرد عن جسمها أسراب البرغش التي تعيش جماعات على سقف الحجرة الرطب.

أنظر إلى الأسراب ملتصقة بالسقف، تتحفز للهبوطات الهجومية، فأتخيل رئيس العصبة يشرح للبرغش الملتزم بالهجمة التالية.

يقول لهم: «إسمعوا. نحتاج لـ ٢٠ مللي ليتر من دم هذين أنظروا إليهما، ضعيفان في جسدين كبيرين. أجلبوا لي الدم الآن، وأفرغوه في الخزان المشترك. سأوزعه عليكم بالتساوي، وأحظى بامتيازات استثنائية لي بسبب شخصيتي القيادية. أجلبوا لي الدم الآن. يفضَّل أن يكون أنثوياً فذلك الذكر البغل يسرف في تناول الأدوية حتى تعشش المواد في دمه. لا أريد سموماً. أريد دماءً نقية!»

ويقوم جندي غبي بطرح سؤال أغبى. يهوي الرئيس على رقبته بـ «سحسوح». يصرخ به أن يصمت وينفَذ الأمر من دون أسئلة.

توقفنا أنا وديالا عن استخدام أقراص «الكاتول» الخضراء منذ فترة. لا تجدي نفعاً، فقدنا الأمل، ودخانها يقتل. لم نعد قادرين على تحمّل السعال النهاري. كذلك كل تلك الأشياء الحاوية للسوائل والتي توضع في القوابس الكهربائية، لم تنفع.

ثم عثرنا على هذا المضرب البلاستيكي الأصفر بالشباك الحديدية، أثناء تجوّلنا في سوق الأحد. قال لي البائع الكردي:

بتلوّح فيها مطرح البرغش. وبيلزقو فيها هون (أشار إلى الشباك الحديدية). وهوب! بيفقعو بالكهربا.

تعلّقت ديالا بساعدي وأخذت تصرخ متل الأطفال.

- اشتريا. يلا. اشتريا.

قلبتها لأجد عبارة ناتئة من الجسد البلاستيك للمضرب:

«Made in China».

قلت كعربي تقليدي يحترم مسبقاً الهجمة الصينية القادمة خلال أعوام، وسيكتب فيها المديح كما كتب سابقاً لغيرها: «تحيا الصين. يعيش هيو جيناتو!»

لمّا ألوّح بالمضرب، هنا في الغرفة، أعود فأتخيل رئيس عصابة البرغش يصرخ بجنوده المرتزقة: «تراجعوا!! كمين! كهربااااء! أتركوا القتلى في أماكنهم وتراجعوا!»

البرغش يهربون، والمضرب البلاستيكي الأصفر يلاحقهم: تاك! تاك! تاك!

أسرفت في مشاهدة الرسوم المتحركة، أظنّ. كل يوم يخطر ذلك ببالي، وكل يوم أكتم ضحكتي لئلا أوقظ ديالا. فقط ألوح بالمصيدة الكهربائية فوق جسدها. تاك! تضوي لمعات كهربائية خفيفة كلما وقع جندي برغش في فخ الشباك الحديدية المكهربة. تاك! أشم رائحة شواء خفيفة.

هكذا، تنام هي وأقوم أنا بنوبة المراقبة والتلويح بالمضرب. حتى أنني -ولتكرارية هذا المشهد- صرت قادراً على التلويح بالمضرب وأنا نصف نائم.

ولما تنتهي فترة نصف النوم هذه، أستعيد يقظتي، وأعود لأتفرس بها وهي نائمة. أحب أن أراها تستيقظ، وفيما تفعل ذلك، أتظاهر أنا بالنوم، حتى أنام حقًّا، وأحلم برواية عن البرغش والذباب.

-٧-

كنت عم تحكي إنتَ ونايم، مبارح!

قالت لي ديالا. تفاجأت. أنا؟ أتكلم وأنا نائم؟ كيف؟ متى؟ وماذا تكلمت؟

قالت أنَّها لم تستطع تفسير ما كنت أقوله. وقد خافت أن توقظني، لأنها سمعَت ذات مرة أنه من الأفضل في حالات كهذه، أن يُتْرَك النائم لمتابعة منامه كي لا ينتابه ما يشبه الصدمة في حال تم إيقاظه عنوةً. قالت أنها اكتفَت باحتضاني وبغلغلة أصابعها داخل شعري حتى صمت وعدْت إلى نومي الهادئ. ثم أضافت أنني تابعْت لدقيقة حديثي الغامض قبل أن أهوي مرة أخرى نحو نومٍ سلبي بلا حركة.

شو حلمْت مبارح؟

استفسرت مني، لكنني لم أستطع أن أجيبها. حاولْتُ حكّ دماغي فلم أخرج بأي تفصيل، ولا حتى إجابة واحدة. مظلمة كانت ذاكرتي. لم أحصل على شيء على الإطلاق.

أنا أتكلم، وفي الحلم أيضاً؟ كيف؟ متى بدأ ذلك؟ ماذا أقول؟ ماذا أفعل الآن؟ هل أدع مسجلةً تسجِّل لي كلامي، أو ربما -من يدري- من الأفضل أن أنصب كاميرا لتصوِّرني وأنا نائم. فلربما يصحب كلامي حركة جسدية مهمة! قد أحظى على تفاصيل لرواية رائعة، خارجة عن المألوف لم أكن لأتوقعها في أشد لحظات إلهامي!

لكن هل أريد أن أفعل ذلك فعلاً؟ أن أكتب نفسي بنفسي؟ أعرف أن ما أكتبه قد لا يعدو انعكاساً غير كامل عن شخصيتي المكتومة. لكنني أكتب ولستُ متأكداً من ذلك. أكتب متسلحاً بـِ «ربما» و «قد». لدي ما نسبته ٥٠٪ من حقيقة كون هذه النصوص أبعد ما تكون عني. خطير أن تجعل نفس الانسان تدرك نفسها. منتهى الخطورة. كأنك تضع الانسان أمام نفسه العارية. تجعله واقفاً في بداية درب اليأس. وعندما يعرف حقيقة نفسه، سيخسر ما يسمونه بالأمل.

أنا. رغم كل مساءلاتي الحثيثة لذاتي التي تنعكس اضطراباً نفسياً وعدم توازن، لا زلْتُ لا أعترف بإجابات ثابتة ومبرمة لتساؤلاتي. أنا رغم كل سوداويتي لا زلْتُ أتسلح بالأمل.

ولهذا أكتب (وإن كنتُ أمزِّق فيما بعد ما أكتبه). ولهذا في لحظة ما، أنظر إلى ديالا (رغم كل علاّتها النسويّة التي ربما تماثل علاتي الذكوريّة أو تزيد عنها)، وأبتسم (رغم مسحة الحزن والاكتئاب التي تغلب على ابتسامتي).

الأمل! أمشي في الشارع. أمر قرب الجزر الأمنية التي تزداد اتساعاً حتى تكاد تصل ببعضها، ولا أملك إلا أن أبتسم. الابتسامة! السلاح الأروع!

كتبْت مرة عن جدة مُتَخَيَّلة، تتورخ تاريخها العائلي بالأحداث السياسية. تنهمك في لم شمل عائلتها، وتبقى السياسة لها بالمرصاد. تصاب بسرطان العظم آخر أيامها فلا تعد تستطيع مغادرة سريرها، ويبقى التلفاز أمامها لتتابع حفظ تاريخها بحسب الأحداث التلفزيونية. وحينما تبدأ تحتضر، لا تأبه الأحداث على التلفاز لها. لا تتوقف الأحداث كرمى لفترة احتضارها، بل تتتابع كأنَّ شيئا لم يكن. وعندها، تفطن الجدة للعبة. إنها ليست «أعطه وخذ منه». إنها لعبة «أعطه ثم أعطِه». وعندها، عندها فقط تبتسم ابتسامة مشعة لم تحظَ بها يوماً. تحظى بابتسامتها تلك ثمّ تموت.

لا. لا أريد أن أكتشف اللعبة. فلأبقى محكوماً بالجهل وبالتالي الأمل. لا أريد أن أعرف مضمون همهماتي التي أنطق بها خلال نومي.

لكن عمّ أكتب؟ عمّ؟ هل أعرف أين ستنتهي بي كل تلك الآلاف من الكلمات والنصوص غير المترابطة؟

أعرف فقط أنني أريد أن أكتب عن أشياء سخيفة. اعتاد معظم الكتاب أن يهملوا السخَف لحظة كتابة ما يدعونه بالروائع. ما همني أنا بالروائع والرمزية؟ الحياة سخف. أن تنتظر فتاةً مدة طويلة، قبل

أن تصرِّح لها بحبك، ويا للعجب هاكُم مرة أخرى: في هذه المدة تكتفيان بالابتسام لبعضكما.

هل هناك من سخف أكثر من هذا. هذا السخف حدث معي ذات يوم. رحْت وتقدمْت من فتاة لأدعوها إلى عشاء فقالت لي: «sorry مرتبطة!» عرفت بعدها أنَّ أحدا ما دعاها قبلي بخمس دقائق. مجدداً، هل هناك من سخف أكثر من هذا؟

أعلم أنه مشهد معاد ومجترٌّ (كحياتي)، لكن أحدا منكم لن يشعر بسخفه قبل أن يختبره بنفسه.

لا أريد أن أختبر جديداً مجهولاً سيزيد من اضطرابي. سأكتفي بروتينية الإعادات. سأدع جهلي مسيطراً، وإن حافظتُ على الحقائق البشعة المحيطة بي!

«Lord of War». نيكولاس كايج مجدداً، لكنه هذه المرة مصنوع من رصاص، ينتشر في وجهه كما الورم الخبيث. بذلته، قميصه وربطة عنقه، كلها رصاص. كل هذا الرصاص يحول الصورة إلى رسم كرتوني. يجعل سيد الحرب تمثال ملحٍ تتطاير ذراته مع كل لفحة هواء.

سيد الحرب المتجهم، الذي يغزوه الرصاص، يجعلني أفكر بعدد أسياد الحروب المتواجد عندنا؟ أفكر بذلك وأعرف جازماً أنهم أكثر من أن أعدهم على أصابع يديّ، وقدميّ.

«خلص، قررت!». سأكتب غداً رواية افتراضية تنقصها العاطفة عن المدينة الميتة.

سأهدم بيروت فيها. بيروت الغربية فقط. لا أعرف بيروت الشرقية كما أعرف الغربية. وأنا لن أكتب إلا عما أحفظه، ولا أهدم إلا الأمكنة التي تعرفها قدماي حق المعرفة. أنا لا أنتقم مما أجهل. لا يعني المستقبل شيئاً لي في رحلة الانتقام الخاصة هذه. الماضي والحاضر، هما ما يهمانني. الواحد منا ينتقم من اللا مكتمل والمكروه أو من الجميل جداً والفتّان. أما أنا فلا يهم ، في هذه العجالة، ممّ أو ممّن أنتقم.

كورنيش المزرعة. المنارة. الحمراء. كليمنصو. الكولا. المتحف. رأس النبع. برج أبي حيدر. الطريق الجديدة. قصقص. بربور. البسطة. النويري. البطركية. تلة الخياط. مار الياس. صبرا. الملاّ. الدوارات. التقاطعات. المصلبيات..

كل ما سبق سيصبح ركاماً.

وسط بيروت. لـمَ يقصف، يُهدَم، ثم يُعاد إعماره؟ ثم يقصف، يُهدَم، ويُعاد إعماره؟ ثم يقصف، يُهدَم، ويُعاد إعماره؟ ما هذه الرتابة؟

يُهدَم ولمرة أخيرة فقط.

المدينة خرابة الآن. يغلب عليها اللونان الأسود والرمادي، ولا بأس بالقليل من الأحمر، ما دام بعيداً عن محيّاي. فوق، طيور بمناقير معكوفة تحجب السماء السوداء. تكاد أسرابها تحجب لمعات البرق حتى. تحت، جثث فائضة من الباطن، وقوارض تقتات على لحمها المشرَّع. بعض أعضاء الأجساد ظاهرة والأخرى مطمورة. بعضها متصلِّب والآخر مرتخٍ. يختلف الأمر من جسد لآخر. أحمر الأجساد يلطِّخ لون الخراب الرمادي في بعض الحالات، فيظهر غريبا قوياً. وفي حالات أخرى، يأخذ الدم يمتزج مع الرماد والتراب والغبار حتى يصبح أسود بدوره.

هنا مدينة مفتوحة للتجريب. تجرَّب الأسلحة هنا. تدفع الشركة العالمية قدراً للمال يتفاوت بحسب المساحة التي تطلبها، وبحسب نوعية الأسلحة التي تريد تجربتها.

أسلحة من كل الأنواع. الخفيف، المتوسّط والثقيل.

أسلحة من كل مكان: الولايات المتحدة الأميركية. المملكة المتحدة. فرنسا. إيطاليا. الأراضي المقدّسة. النيوعراق. الجمهوريات والإمارات والممالك والخلافات الدينية الناشئة حديثاً...

مرحباً بالجميع. مدينتنا مدينتكم، وكرهنا هو كرهكم.

موجز الأخبار المحلّيَّة؟ لا شيئا جديداً. منذ زمن بعيد لم يتغير شيء يذكر، والنشرات تشكو من التكرار الرتيب:

حزبا الكتائب والقوات اللبنانية يعلنان استمرار عملياتهما المقاوِمة ضد إسرائيل. الحزب القومي السوري الإجتماعي يدعو لاحترام نهائية لبنان الكيان ويطالب بفتح ملف اغتيال بشير الجميل من جديد لإحالته على محكمة دولية. تيار المستقبل يطالب بالتحقيق في السياسات الاقتصادية منذ عام ١٩٩١ حتى عام ٢٠٠٥ ويطالب بالرأفة بقاتل رفيق الحريري. الحزب الشيوعي اللبناني

ينتقد في بيان للمكتب السياسي من يهاجمون الهوية اللبنانية ويدعو لحماية السفارة الأميركية من المندسين اللذين لا ينفكون يحاولون اقتحام السفارة، ويطالب باعتماد اللغة النيوفينيقية لغةً رسميةً أولى في البلاد. حزب الله يدعو لاحترام علاقات لبنان مع الدول الغربية الصديقة ويطالب بتنفيذ قرارات مجلس الأمن الأخيرة المتعلّقة بسيادة لبنان. حركة أمل تشكل لجنات من المحامين المتحزّبين لديها في سياق الدعاوى التي تقوم بها لملاحقة الفاسدين في الإدارات الرسمية. بقايا اليسار المنفلت من الحزب الشيوعي يطالب بمعاقبة كل من تموًّل خفية من قبل تيار المستقبل. الحزب التقدمي الاشتراكي يهاجم عائلة جنبلاط الإقطاعية ، من مقره في بعلبك...

لذا، لا داعي لنشرات الأخبار تُلغى بقرار رئاسي يصدّق عليه مجلس الوزراء مجتمعاً. أصلاً مجلس الوزراء لم يعد موجوداً وكل الحركات والتيارات والأحزاب المذكورة سابقاً ممنوعة من ممارسة نشاطاتها في المدينة الرمادية الوليدة.

هذا بلد يحتاج رأساً واحدة. وهكذا ستكون روايتي، برأس واحدة. عبارات الممالأة الحبية ممنوعة من التداول هنا. للتأكد قبل استخدام أي عبارة، الرجاء النظر في الدليل الأصفر المتوافر بكثرة على الرفوف الزجاجية بجانبك. العقوبة تتناقص كلما ثبت أكثر مدلول العبارة السياسي، الطوائفي، المناطقي، العشائري أو العائلي.

هنا، لا مكان للحب المناسباتي. إلعبوا بعيدا. هنا، مطرح للتنفيس عن مكنونات القلب والعقل. للمشي، الرجاء سلوك الممرات الزجاجية المارة في أرض الجثث. تستطيعون رؤية التجارب. تستطيعون أن تحدِّقوا بالجثث، جديدها وقديمها، ولن يراكُم أحد من هناك. أنتم فقط ترونهم.

أمامك على اليمين زر «replay»، وبقربه الترجمة العربية: «كي لا تنسوا أن تكرهوا». أكبس عليه عزيزي المتنزَه واستحضر الخناقة، المعركة، المجزرة، أو الحرب التي دارت ذات يوم في المكان الذي تطل عليه الآن في الخارج. أكبس عليه لتنهض الجثث الإلكترونية الخضراء في الخارج ويعيدون تمثيل الحدث المطلوب لدقيقة واحدة. الرجاء الضغط مرة أخرى على الزر ذاته إن أردْتُم إطالة مدة الحدث العنفيّ الأخضر.

ثمّ ينطلق صوت من أحد المكبّرات المثبّتة بتكرار محسوب بعد كل مئتي متر:

«أهلاً بكم. أنتم في بيروت. الإثارة. المتعة. التشويق.»

وتتكرر الجملة من جديد بفارق خمس ثوانٍ عن سابقتها وبالصوت نفسه.

« أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) أهلاً بكم. أنتم في بيروت: الإثارة، المتعة، التشويق. (..) »

عندها، أتمشى أنا وديالا في الممرات الزجاجية. نهرب من عبارات المكبّرات المعادة فنحشو آذاننا برقائق الكترونية تزودنا بعبارات مُمَوْسقة من «الليل والعين» بتدرجات عدة يغنيها مغني مستشرق ذو لهجة لبنانية ركيكة، لزوم اللعب على أوتار أحاسيسنا. نتفرّج على كل ذلك، ونسمع كل ذلك، ونحن نأكل الفول بالكمون أو كوزيْن من الذرة المسلوقة. ونرى أخيراً لافتات معلقة أعلى الممرات الزجاجية تعلن: «الرجاء عدم اصطحاب مثقّفي المدينة البائدة، حاملي داء النوستالجيا القاتل».

يا ليل.. يا عين.. يا ليللي. يا ليل. يا ليلي يا عيني..

يندفع جسدٌ حي باتجاه الزجاج من الخارج ويأخذ يدق عليه، فلا

نسمع شيئاً ونتابع سيرنا. ويبقى هو في الخارج، تجحظ عيناه للحظة، تمسح يداه زجاج الممر وهو يتهاوى، ثم تبخ الطوافة فوقه الكلس الأبيض لتبعد جحافل القوارض عما بقي منه.

ثم تخفت الصورة.

تـ.. خـ فـ.. ت.

آخخخ! تباً لهذا الصداع الذي يفتت دماغي. أشعر بوخزاته كدبيب النمل، كرشقات الرصاص.

هذه النظرة القاتلة على أكثر من نصف وجه داستن هوفمان في ملصق «Straw dogs» تقتل. تشبه النظرة السابقة لفرار الدمع من العيون. لا يتوقف الأمر عند هذا الحد. العدسة اليسرى من نظارته مكسورة لكن نثرات الزجاج ما زالت متعلقة ببعضها رغم خروجها عن الإطار. الشفاه محايدة أو يُراد لها أن تكون هكذا. واضحٌ هذا الحياد من الغمزة الظاهرة عند الجهة اليسرى من الشفتين المطبقتين. الغمزات تحتاج إلى أعصاب مشدودة، إلى تحكم ما بعضلات الوجه. هذا حيادٌ مُتْعب. لا يمكن أن يفعل داستن هوفمان كل هذه التعابير ويتحمل نظارة مهشمة العدسات من دون أن يصاب بالصداع.

أنا أيضاً. لا زلت أحس بالصداع الرهيب منذ البارحة. «صداعي لن ينتهيَ»، أفكِّر وأنا أقف عند الباب الخارجي لمحل الحلاقة أسفل المبنى المقابل للفندق. أحدّق للحظة في ما يحدث في الداخل وتقطع رؤيتي الواضحة الكتابات الحمراء الملصوقة على الواجهة الزجاجية. يجثم جسدي بلا حركة للحظة، ثم أدفع الباب وأدخل. أنتظر إلى أن يأتي دوري، ثمّ أجلس على الكرسي. يضع الفتى الرداء القماشي حولي ويحكم ربطه حول عنقي. يسألني عن نوع القصة التي أبتغيها. «عالزيرو»، أقول. يصمت. يلمس شعري الكثيف وينتظر تأكيداً. أومئ إيجاباً. أرى رأسي يُحلق ويفرغ من شعري الذي اعتدتُ عليه.

أنظر إلى المرآة الأمامية فأرى المرايا التي تحيط بجدران المحل، تتعاون جميعها على تضخيم عدد الأشياء. أرى الشيء ذاته ثماني مرات أو أكثر. أتوقف عن العد عند رقم ٨ ولا أكمل. أملّ. أنظر إلى ثماني نسخات مني. أرى ثماني رؤوس، ستة عشرة خدود محمرَّة. أنا الكاره لخديّ هذين، أرى منهما ستة عشرا

أتوقف عن النظر أحني رأسي بطلب من الحلاق وأشعر بالماكينة تجز شعري. أقول لنفسي أن جنوني يقبع هنا. في مكان ما في هذا النخاع المضبوب داخل جمجمتي العصبية. هنا شيء خاطئ. لست كالآخرين. أستطيع أن أقلدهم بنجاح فائق. أستطيع أن أبتسم للناطور والجار وزميل العمل وسائق التاكسي والشرطي وبائع الجرائد. أستطيع أن أبتسم لهم جميعاً وأن أتجاذب معهم أطراف الحديث وأن أجاملهم أيضاً. أقدر أن أفعل كل ذلك بنجاح لكنني لا أستطيع إلا أن أفكر داخلياً بِعتْه وغباء من أتحاور معه. فوقيتي الجميلة التي أعشقها تجعلني أنظر إلى كل واحد كأبله يملك أشياء لا يستحقها. وبعدها أحاور نفسي بنفسي:
«لو كنت مكانه. لَو ملكْت ما يملك هذا الأحمق. لَو. لَو...

ينهي الحلاق عمله ويبعد بالسيشوار قدر الإمكان ما بقي من شعر متناثر على الكتفين أو الوجه أو الأذنين. أنظر إلى رأسي الحليقة ووجنتيّ المتوردتين من فعل حرارة السيشوار. لَوْ كنت أملك ذقناً

غزيرة لكنت أطلْتُها وأخفيت قدر الإمكان ما يظهر من احمرار خديّ. لن أشذبها قط. سأتركها تنمو كما تحلو. لن أتخلص من الزغب الزائد على الوجنتين. سأتركه يقسى حتى يكمل إخفاء ما تبقى من حمرة خديّ.

هذا الأحمق الذي يتأفف من حلق ذقنه كل يوم قبل أن ينطلق إلى عمله، عليه أن يصمت ويكف عن التأفف. يكره لحيته، حتى أنه يردُّ بسخرية سرعة نموها إلى أن أحدا أطعمها زبلاً من غيرِ أن يدرِ وهو بعد مراهق. هل كان نائماً أم ماذا لما حصل ذلك؟ ما هذه المزحة التي تفتقر للمنطق؟ يا لخبله. لا يقدَر ما لديه. لو كان أنا لديّ لحية كلحيته!

أدير المفتاح في قفل الغرفة، وأدخل لأجد ديالا أمام شاشة كمبيوترها المحمول المضاءة، تحفظ بعضاً من أفيشات الأفلام الموجودة على موقع سينمائي على الانترنت. تلتفت إلي وتشهق. «شو عملت»، تقول. «ما حبيتي؟»، أسألها. تتسع شفتاها المغلقتين. «إنو أنا شو خصني؟» تلقّني لحظة اكتئاب، فأقف أمام المرآة أنظر إلى فعلتي. هل هي شنيعة لهذا الحد؟

آراها في المرآة تقترب مني. تقف ورائي. أنتظر أن تلتصق فيَّ من الوراء. لكنها تضع يديها على كتفي وتضغطني إلى الأسفل

طالبةً مني أن أتربع على الأرض. أستجيب من دون أن أعرف مرادها. تجلس فوقي وتضع أصابعهاعلى قرعة رأسي. تبدو برأسها كالدجاجة المنحنية على صوص. «وْلُك شو عم تعملي، ليش مركّزة براسي متل البسينات؟» تضحك. «ولُك روق»، تقول. «عندك شاميّة كبيرة هون. نابقة لبرات راسك. منيح اللي ما جرحك الحلاق وهوي عم يحلقلك راسك». «وين وين؟»، أسألها. تستمر بالضحك. «ولَكْ ما بتعرف إنو عندك شامية؟ حدن ما بيعرف راسو؟» تنهض وهي تضحك عائدة إلى كمبيوترها، وأبقى أنا أكتشف رأسي لأول مرة.

أنا المفتون بالشامات أملك شامةً فريدة في موقعٍ فريد. يراها الجميع لما أتخلى عن شعر رأسي ولا أستطيع رؤيتها أنا إلا بصعوبة، وأمام مرآة.

أتلمس بأصابعي كل النتوءات التي تحدد شكل رأسي وأنا أنظر إلى المرآة. أفكر أن الصداع برأس حليقة سيزداد عن رأسي السابقة المغطاة بشعر لسبب غير مفهوم. أفكر كلما نظرت إلى شكل جمجتي بالازدياد المضطرد لعدد حبات المسكنات التي ينبغي أن «أسفها» قبل أن ينطفئ صداعي. أمضي دقيقة أحدّق في المرآة ثم ألاحظ عدم احمرار خديَّ. تبا. الأمر حدث ثانيةً. يتجهم وجهي من دون أن أسيطر عليه. أفقد شعور اللهفة والاكتشاف والحميمية الذي اعتقدْت أنني شعرْتُ عليه لمّا كانت ديالا «تفلّيني». الأمر بات يقلقني. أتجه إلى الحمام لأستحم. ربما تنسيني المياه الساخنة توجّساتي.

خرجْتُ لأتمشى. تعمّدْتُ أن أمرّ تحت «براندته» في الطابق الثاني. بدا لي أن لا أحد في المنزل. ظهرَتْ جدران «البراندة» مغبّرة. نظرْتُ إلى فوق وأنا أحاذر أن لا ألفت الأنظار في هذه الجزيرة الأمنية الوليدة حديثاً، كي لا أتعرّض لتحقيق لا طائل منه من ذلك الشاب الذي يلبس البدلة الزرقاء ويحمل السلاح وهو لم يفلح حتى الآن في الحصول على شهادة البريفيه. لا أريد أن أستنزف أعصابي المستنزفة أصلاً.

فكّرْتُ وعزمْتُ. سأكتب رواية كلاسيكية جداً ومعادة عن عجزة مجانين ينطقون بالحكمة من دون أن يدروا بذلك.

«إيمتى بتبلَش الحرب يا أبو عصام؟»، أسأله.

بتبلِّش الحرب بس ما نعود نشوف الشمس من هالبلكون.
لك صاير عم تقول شعر يا أبو عصام!
ولُك أيّ شعر ما شعر. ليك اطلّـع. اسمالله كم صـــورة صاروا رافعين هالمنايك. تعا اطلّع من هالزاوية. مبينين أكتر.

يفسح لي المجال ويدعوني للوقوف في زاويته، ثم يجلس مكاني ويصب لي القهوة في الفنجان. ويبدأ بالحديث عن ليلة البارحة

مع امرأته بعد أن يطل برأسه إلى غرفة الجلوس المتصلة بباب البراندة ويتأكد من عدم وجودها هناك. ولما يتأكد، يستفيض فتصعد الحمرة إلى محيّاي.

ولُكْ إشبَك عم تحمرُّ؟ من وين جايبلي هالحيا كلو؟ ولك إنت قاعد ببلد مقلوع منو شرش الحيا. إيشبـَك!!

أبو عصام عاد من الخارج أوائل التسعينات. وفي مرة اتّصل بزياد رحباني على الهواء مباشرةً في لقاء تلفزيوني.

قولَك يا إيستاذ زياد. برجع أنا والعيلة من برة؟ إنو صارت سالمة وما بقى فيه حرب، إنتَ بتقول؟

أجابه زياد وهو يضحك.

شو بعرِّفني أنا؟

في كل مرة أمر تحت براندته وأسلّم عليه، يناديني بعدد الأيام الباقية للحرب وهي تزيد أو تنقص بحسب الاحتقان السياسي والمذهبي.

شغلة شهرين بس! (..) شي سنة بعد، وبتبلّش (..) هالصيفية (..) مرَقت الصيفية، أجّلوها للصيفية اللي جايي!

أجلوها؟ هل تؤجَّل الحرب؟ طبعاً، يؤكد لي. «ما إذا ما بلَّشت بالوقت الصح، ما بتظبط معهن منيح».

وفي مرة زرتُه، قال لي: «بعد شي يومين بتعرُك». عرفتُ من تجاهل زوجته له أنه تخانق معها. سألتُه كيف كانت ليل البارحة، فهبَّ في وجهي وطردني وهو يصرخ:

ولُك شو طق شرش الحيا مع العالم؟ ما بقى تفرجيني خلقتك!!

فتأكدت أن ليلة البارحة كانت «مش ظابطة».

هل أكتب عن رصاصات أبي عصام الفارغة التي ينظِّفها كل يوم؟

أتاني مرة وأنا جالس على براندته، وهو يحمل مسدساً صدئاً ملفوفاً بقماشة بيضاء.

هيدا بنضفو كل يوم لكون جاهز في حال بلشت الحرب على غفلة.. ما حدا بيعرف.

ثم أخرج الرصاصات الذهبية، وضعها على القماشة، ورفعها إليّ كمن يرفع شيئاً مقدَّسا. دعاني لأراها وانهمك هو في تزييت المسدَّس. أخذْت أقلب الرصاصات. فلاحظْتُ أنّ وزنها خفيف. نظرْتُ إلى باب البراندة فرأيْتُ أم عصام تبتسم لي. كانت ابتسامتها تقول: «هذه رصاصات منزوعة البارود».

قرأتُ بعد شهرين أو ثلاثة مقالةً عن أبي عصام، كتبها صديق قديم

لي بات يعمل صحفياً. في المقالة ظهر أبو عصام بطلاً لمشكلة أمنية. فمع ازدياد عمليات الاغتيال، توسعت الجزر الامنية لبعض الزعماء حتى كادت تتصل ببعضها، وحدث أن كانت بلكونة أبي عصام على تخوم إحدى الجزر الأمنية. خرج أبو عصام لينظِّف مسدسه كالمعتاد فلمحه بعض رجال الأمن على الأسطح القريبة. شهروا أسلحتهم باتجاهه، وأجروا اتصالاتٍ طارئة.

وقد سُمِع يصرخ:

مافي ابن مرا رح يقدر ياخد مني الفرد.

صرخ جملته هذه، وسأل بعدها صديقي إن كان يريد إضافة ملعقة سكر لقهوته، كأنَّ شيئا لم يكن. تناقش صديقي مع عنصر قوى الأمن الذي انتظر عند باب المنزل يريد استلام المسدّس. أتت له أم عصام برخصته، وبقي أبو عصام في براندته فيما كان الأمن على الأسطح المواجهة متحفزاً لأي حركة قد تبدر من الرجل بالفانبلا البيضاء. إستطاع صديقي بعدها أن يأتيه برصاصتين فارغتين من دون أن يراه أحداً. اقتنع رجل الأمن وغادر، وأعيدت الرصاصتان الفارغتان سالمتين فيما ظل رجال الأمن يتحفزون بشكل طارئ لأبي عصام كلما خرج إلى البراندة، وتم فرز عنصرين، مهمتهما مراقبة هذه البلكونة بالتحديد.

تذكّرت أبو عصام وأنا أشاهد بعض الناجين الأحياء من غارة الشياح الشهيرة في حرب تموز صيف العام ٢٠٠٦. ظهر أحدهم مغبراً على شاشة التلفزيون. أخذت الكاميرا تلحقه بإصرار مخيف ومقرف. كان يعود للوراء خطوتين، وينظر إلى الردم الطازج، ثم يضع يديه على رأسه.

نبش بيديه بعض الرمل حتى وجد أوراقاً خاصة به وبعائلته، وأخذ يهلوس.

راح كل شي. البيت والمرا والولاد. بس ما بأثّر بعد معي الهويات والباسبورات. ليكو إطلعو. ما صارلن شي. ما صار شي..

امتقعت وجنتيَّ بالدم، وهرعت إلى الحمام لأتبرّز دمي.

فكرت وأنا أجلس على كرسي الحمام: ماذا يفعل كل هؤلاء العجائز في شقق أولادهم والشوارع ودور العجزة والمستشفيات. ماذا يفعلون؟ لمَ لا يروون قصصهم؟ فليستدعهم أحدٌ بحق الله! (الله؟) فليقايضوهم: ضمان استشفائي كامل وأربعة جدران مقابل أن يحفظوا في أوراق أو رقائق إلكترونية الذاكرة الجماعية لهذا المجتمع. أضحك لفكرتي الصبيانية السخيفة. لا أحد يأبه للذاكرة الجماعية. لا أحد. لو استطاعوا تعميم حبوبٍ تنسي العالم المائة سنة الأخيرة (أو أكثر)، لفعلوا.

أين أم جورجيت وهي تشتم كل من مرّ في الشارع تحت نافذتها المقفلة بحدائد سوداء؟ أبو شاكر وهو يطالب بتحرير لبنان، ويدعو للبدء من مكب النورماندي تحديداً؟ هو يقول أن جبل النفايات إذا بُسطَ فوق البحر، لأضاف كيلومترات مربّعة جديدة إلى مساحة لبنان الإجمالية. هو يطالب بتحرير لبنان حتى آخر كيس زبالة. «لو بيعرفو شو ممكن يساوو بكل هالزبالة!»، يفصح وهو يغوص في مكب نفايات «سوكليني» أخضر، ثم يقف ويسلّم على صبيّه -الواقف خارج المكب- كرتونةً. ويعلن له بحماسة: «شوف هيدي! لقطة!»

من يتذكر حلّاق الشارع التراثي الذي شنق نفسه بعد أن ختم باب دكانته بالشمع الأحمر؟ ختمته الشرطة لأنه حوّله من صالون حلاقة إلى دكان سمانة صغير. لم يعد باستطاعه أن يحمل المقص من دون أن ترتجف يده. آثر أن يغيِّر المهنة ويبقي على دكانه الصغير، مصدر رزقه. مأساته بدأت لما صار على الشارع التراثي أن يدخل عصر الحداثة. هذه ليست أيام غبارٍ وقِدَم. هذه أيام عمارات زجاجية. لم يبع الحلاق العشرة أمتار المربعة. وقف حجر عثرة في وجه الحداثة القادمة. نبش المستثمر القانون. تكفّل القانون بالحجز على المحل. أنظرْ! حذَدا! في زمن الجزر الأمنية والكانتونات المُشَرْعَنَة، تكترث الشرطة لمحلٍ خالف شروط العمل.
شنق الحلاق نفسه صبيحة يوم خريفيٍّ. كان الشارع فارغا. صعد

على كرسي خشبي، أحضره معه. علّق رقبته بحبل ثخين علّق بدوره على العمود الصدئ الناتئ من الحائط المجانب للمحل. ربط رقبته وترك كل شيء. اختنق للحظة ثم سكتت عيناه وهما تنظران إلى واجهة محله الزجاجية، تحديداً إلى صورة العذراء مريم الملصَقة على الواجهة الزجاجية من الداخل. أتى الناس ورأوه معلّقاً فيما الحبل يدور، ويدور الجسد معه. أنزلوه، دفنوه وأقاموا له العزاء.

كيف عرفت ذلك؟ لم أعرف. عرفت نتفاً من قصته التي سبقت موته، وتخيلت مشهده الأخير، فكتبتُه.

وأم كامل الخمسينية التي تظل تحوم في الشارعين المحيطين بمجرى نهر الموت، بين زحمة السيارات، لمَ لا تروي قصتها؟ تخرج إلى هناك مرتين كل نهار في الصباح الباكر، وفي الرابعة بعد الظهر في الصباح، تحظى بلحظاتها الصامتة، وتنظر إلى مجرى النهر الشحيح.

هنا رُمِي ابنها ذات يوم وهو معصوب العينين، وتم إطلاق النار عليه في الهواء، تماماً كما يُطلَق طائرٌ من قبضة اليد ليُقنَص. لكنهم لم يصيبوه، تقول. تؤكد أنه لم يمت. يجيء إليها طائراً في أحلامها. يدخل من نافذة البيت ويجلس جنبها يتأمل فيها، لكنها لم تلحقه يوماً. دائماً تصحو متأخرة لترى النافذة مفتوحة.

وفي الرابعة عصرا من كل يوم، تتنقل بين زحام السيارات. عيناها مصوبتان إلى المجرى دائماً. في هذه الساعة، يلعب الأولاد كرة القدم فوق طين المجرى. يقذفون بالطابة على الحائط فترتدّ. رسموا على حائطي المجرى مربعين كبيرين. جعلوا من هذين المربعين مرميَيْن. فيهما يسجلون الأهداف. ثلاثة أو أربعة، بعضهم حفاة، وكلهم يركضون خلف الكرة. الأولاد هُم هُم إن كانوا في فيلم كوري أو في مجرى نهر الموت في بيروت الشرقية.

لو كانت تملك أم كامل خيالاً أوسع لقالت أنّ ابنها طار بين الرصاصات واختبأ ذلك اليوم، عاش أيام فيضانات نهر الموت حيًّا، وسيخرج ذات يوم من فتحة مجرور، ويمشي فوق مجرى النهر الجاف.

هل طار أبو عصام إلى أميركا؟ هل استخدم رصاصاته منزوعة البارود في مواجهة الطيارات التي غطت السماء ذات صيف في هذا البلد؟ أم مات ودفن قبل اندلاع الحرب المقبلة؟ (لم تندلع الحرب حتى كتابة هذه السطور). لست أكيداً. صرت أفتش عن اسمه في صفحات الوفيّات كل يوم. فشلْتُ في العثور على اسمه في إطار أسود حتى هذه اللحظة.

-١١-

إذاً، أنا في الشارع. ألف ليرة أو أقل كافية لأن أمر بمعظم شوارع المدينة الرئيسية. أنتقي باصاً ذا طريق طويلة، لا يزدحم بالركاب. أنقد السائق قطعتيْن معدنيتيْن، الأولى من فئة الـ٥٠٠ ليرة والثانية من فئة الـ٢٥٠ ليرة. أختار مقعداً قرب النافذة لأنظر عبرها إلى الخارج. لا أنهض لعجوز ولا لفتاة أو لأم مع أولادها. أبقى في مكاني أنظر، وأستمع لشتائم السائق المتطايرة بلا تصويب. لا تعيق خلوتي إلا رائحة المازوت. أحدِّق في المارة والسائقين، في زحمة سير خانقة وخناقات شوارعية مضبوطة. يضع السائق كاسيتاً لجورج وسوف. أفكر أنه يليق بمثل هذه الخلطة العجائبية ولا أتأفف. الزمير يشق أذنيّ. في هذه المدينة الشبيهة بغوثام سيتي، يصعد الزمير حتى دماغي ليعيدَ إليّ الصداع. أشعر للحظة بحركة في مصراني، لكنني أحاول السيطرة عليها وأنجح من دون أن أعرف كيف.

تعوَّدت على وقفات الباص. يتوقف ويترجّل منه راكب أو اثنان، ثم يعاود سيره. يتكرر المشهد حتى ألتفت حولي لأجد نفسي وحيداً. ينظر السائق في المرآة الكبيرة إليّ سائلاً:

وين بدّك تنزل؟

من مطرح ما أخدتني.

يشيح برأسه كأنه سمع إجابة منافية للمنطق، ويكمل طريقه الدائرية المغلقة. يصل إلى المكان الذي صعدت منه، فأترجل بعد أن أنظر في وجهه الكريه.

أقف على رصيف الشارع الذي عدْتُ إليه.
البارحة كما اليوم، كنت أمشي في شارع قريب من هنا. توقفت في لحظة عن المشي. كنت أنظر إلى إسفلت الطريق، ولحظتُ أنّ الصخب اختفى فجأة. رفعْت نظري لأجد الشارع فارغاً إلا من أوراق جرائد تتطاير يميناً ويساراً فيما بعضها قابع على التراب بلا حركة. نظرت إلى البنايات فلم ألمح إلا الفراغ الذي يلفها. سمعْت صفيراً، فالتفت. رأيت ديالا آتية تمشي مشية بطيئة على إيقاع الصفير. الصفير يترافق مع أكفٍّ تصفق، لكن لا أحد موجود في الجوار ومع استمرار هذه المؤثرات الصوتية، يبرز ردفا ديالا أكثر

في لحظة، تنقلب البنايات عوجاء أو مدمّرة الأطراف بشكل يفتقد لمنطق وقواعد الهندسة المعمارية، وتمشي ديالا مشية بطيئة باتجاهي كعارضة أزياء سيئة الموهبة، ثم تزداد أسلاك الكهرباء -الشرعية منها واللا شرعية- وراءها. تتشعب الأسلاك حتى تغطي السماء، تعلق حمامة هاربة في هذا التشعب حتى تكاد تختنق. تمر قرب علبة هاتف، فتنتفخ فيها الأسلاك حتى يتجعلك بابها وتخرج منها.

تمشي ديالا مشيتها المتمهلة حتى القتل وترتفع الأكف لتصفِّق والأفواه لتصفِّر في مكان ما لا أراه. لا أبتسم. أعود أنظر إلى الإسفلت وإلى السلك الذي امتد حتى قدمي اليسرى ليلتف حولها. ثم سلك ثان وثالث. قدمي اليسرى تتضامن مع قدمي اليمنى وتستقبل سلكاً أولاً ليكبلها. لا أبتسم لها، لكن لا آتي بأي حركة مقاومة. فقط، أنظر إلى الاسفلت.

يزداد الصفير حتى يتحوّل أوركسترا من زمامير سيارات وأغانٍ مختلطة.

إمشي يا حيوان!

أجد نفسي أنظر إلى الاسفلت وسط الشارع المكتظ نفسه. جورج وسوف يغني من سيارة قريبة.

ديالا لا تسكت. مذْ عدت من الخارج وهي تتحدث في أمور جادة جداً وتافهة جداً. أعتقد أنني أستشعر أكثر مما يجب هذه الأيام. أعتقد أنها دائماً ما تتكلم هكذا. الآن فقط لاحظْتُ، ربما لأنني بحاجة إلى شيء من الهدوء، شيء من الصمت.

لمّا كنت مستلقياً على السرير، أخبرتني عن «الصانعة» الكردية التي أتَتْ لتساعدها في تنظيف الغرفة. (شممت رائحة المنظفات لما دخلْتُ الغرفة.) سألَتْها وهي تمسح الكومودينة من غبارها:

وين آخدة هالصورة يا ست ديالا؟

بفرنسا.

يعني وين يا ست ديالا؟ حد تركيا؟

لأ. حد المانيا.

ألمانيا وين يا ست ديالا. حد تركيا؟

له! حد النمسا.

وهيدي وين كمان؟ حد تركيا؟

كملي شغلك يا روعة!!

أخبرتي ديالا بحوارهما هذا بكل تفاصيله، واستهجَنَت بلطف من يمرر لي رسالة خفية:

- عمرا عشرين ومكتوب كتابها من لما عمرا ١٤!!

تحفزت خلية في دماغي، وترجمت رسالتها: ها قد بدأت من جديد: الزواج. الزواج. الزواج. انتبهت أنني صامت، ولا أعقَب بشيء. قالت أن لون وجهي يميل للون الأصفر. سألتني إنْ كنتُ على ما يرام.

قالت أصفر؟ إذا كان لون وجهي يميل للصفار، فبماذا تصف لون بذة أوما ثورمن في فيلم تارينتينو، أمامي على الحائط؟

-١٣-

ما بال هذا المهرج بطاباته الست يلحق بي كلما دخلتُ شارعاً؟ كيف يظهر دائماً عند الناصية أمامي وكيف يختفي فجأة؟ ست سنوات وهو يلحق بي من شارع إلى آخر، ثم أفرك عينيّ وأعود لأنظر فلا أراه. ترجف يدي. أقول أنه النوم المفرط أو ربما العادة السرية أو كثرة القهوة والكافيين..

لكنه يعود للظهور بعد هنيهة، بوجه طُرِش بألوان فاقعة. يتسع فمه، يغمض عيناً واحدة وبعدها كلتا العينين، يزمّ فمه ثم يفتح عينيه وينظر. يخرج ست طابات ويقذفها في الهواء. يلاعبها بيديه من دون أن تسقط. ثم تتحوّل الطابات إلى خناجر تتهاوى الأبنية وراءه بلا صوت ولا غبار. كأنها علب من الكرتون تدهسها قدم كبيرة آتية من المجهول. أغمض عينيَّ ثم أفتحهما، فلا أجد شيئاً. لا هو هناك، ولا البناية سقطَتْ.

أقف أمام ماكينة سحب الأموال فترمقني كاميرا المصرف المثبتة عالياً. ألحظ المهرِّج مختبئا في العدسة يمد لي لسانه. لا زال يلعب بالطابات. كيف يفعل ذلك داخل عدسة؟ أدخل المصعد فأرى الكاميرا في الزاوية العليا. الكاميرا ذاتها باختلاف بسيط. المهرج ذاته بلا أدنى اختلاف.

كثر ظهور هذا الملوّن في فترة ما من حياتي. تلك الفترة القميئة التي كنت أكتفي فيها بمراقبة ديالا. كثر ظهوره حتى بلغ الذروة ثم اختفى فجأة، من دون سابق إنذار إختفى في زمن ازدادَت فيه عدسات الكاميرات لدرجة مخيفة. في ظل طفرة الرقابة هذه، كيف سأهدم هذه المدينة في روايتي الافتراضية؟ كيف أفعل ذلك بوجود كل هذه الأعين؟

أجزم أنني موجود في غير ذي شريط فيديو لكاميرات مراقبة مررت أمامها اليوم من دون أن أنتبه. بعض الشركات يحتفظ بصوري لأربع وعشرين ساعة قبل أن تأتي صورة آخر لتسجل فوق صورتي، والبعض الآخر يحتفظ بالأشرطة إلى أبد الآبدين، من أجل الأرشفة في الأزمنة الافتراضية الموازية التي ستُخلَق قريباً إن شاء الله. (الله؟)

لكنني أحتاج للهروب من كل تلك الأعين. أفكّر في ذريعة مقنعة تضمن عدم ارتكاز روايتي على أحداث ضعيفة ولا منطقية وأصل للحائط المسدود ذاته، وفي كل مرة أعيد التفكير في خياراتي المتاحة وأستنتج: أحتاج قوى خارقة. من أين آتي بها وأنا وهن هكذا؟

المهرّج اختفى بدل أن يرافقني. ورغم اختفائه، لم أفقد الشعور بأنني مراقب. لكن، لـمَ يتبعني أحد؟ لا أملك إلا ديالا ودماً فائضاً. أيريدون ديالا أم دمي؟

البارحة، نمْت وبلّل العرق البارد جسدي. زارني المهرّج في الحلم. قال لي أنه منهَك ولم يعد يقوى على ملاعبتي على النواصي. همس لي خائفاً بأن هناك من يراقبه.

وتضامنت مع المهرّج فلازمت غرفتي تماماً حتى توقفت نهائياً عن الخروج إلى الشارع.

-١٤-

بدأ الذباب يحوم فوق التفاح الموضوع في وعاء على طاولة المطبخ الصغير المجانب لغرفتي. البارحة، أتت لي ديالا بهذه الفواكة مع أنني لا آكلها. أجبرَتْني أن آكل تفاحتين وتركَت الباقي هنا وهي توصيني أن أقضم تفاحة كل يوم. أنظر إلى الذباب الحائم وأفكِّر: ماذا يسمى؟ ذباب الفاكهة، أتذكّر.

هذا الذباب الصغير هو الأصل في علم الجينات. هذا الذباب الصغير يملك عينين عملاقتين حمراوين (نسبياً) بحجم رأسه! هذا الذباب الصغير المعقد يخلق في محيط فاسد. تأتي الأنثى فتضع بيوضها على سطح التفاح الفاسد مثلاً، ثم وبعد يوم واحد فقط، تفقس البيوض، لتظهر يرقات سريعة النمو، تتخذ من كائنات الخميرة والفطريات الموجودة في الفاكهة غذاءً لها. هذا الذباب يبدأ حياته بلا رئتين ثم يحصل على أجنحة ثم يتنفس لفترة قصيرة هي مدة حياته التي يقضيها برتابة يأكل ويمارس الجنس ويموت بعدها في غضون عدة أيام. يعيش اللحظة فقط، ويكثر من ملذاته حد الملل والرتابة.

أنا ذبابة فاكهة. أشبهها في مللها. مثلها، نَموْتُ في محيط فاسد، ورغم كل رتابتي، أبقى معقَّداً وفي تعقيدي تكمن أهمية جمّى لآخرين. يا أنت الذي يقرأ الآن هذه السطور، ماذا تتوقع أن تجد

في حكايتي وتفاصيلي المملة؟ من أين تأتي بهذا الفضول؟ تحكّم بعشقك للتلصص قليلاً! كل رواية مقروءة، كل فصل مقروء، كل فقرة مقروءة، كل جملة، كل كلمة، كل هذه القراءات أمثلة على أفعالكَ التلصصية، فلا تحاول الهروب لتبرِّئ نفسك، وَقِف قليلاً أمام المرآة.

لا. لا تدافع عن نفسك فتهاجمني، وتقول أنَّ الأمر ينطبق عليَّ أيضاً. أنا فقط ذبابة فاكهة مملة، لكن معقدة وقد تموت غداً على الأرجح. أنا لم أعد أهتم لا لنفسي ولا لحياتي، فيما أنت تحسب كل دقيقة. إنتبهْ، كلّما تلصَّصْ أكثر على تفاصيلي، كلّما اكتأبْتَ أكثر الغوص في الروايات تمهيدٌ لبدايات اكتئاب وانزواء. عالمك عندها سيُعرّى أمام ناظريك، وستقارن بينك وبين ما تقرأه الآن. نعم، أنتَ الذي تحظي بحياة هانئة رتيبة ستتفاجأ بمدى اختلافي عنك، وقد تتماثل معي بعض الأحيان لكنه تماثلٌ قلَّما يتكرر

نحن الذباب الذين يقيم العلماء تجاربهم علينا. معقدون صغار، مجموعون بالآلاف في قعر أنبوب واحد مغطاةٌ فوهته بقطعة قطن بيضاء. نحن الذين نسعى للتكاثر قبل أن نموت نصبح فقط حشرات في مختبر يدعونه «الحياة». هؤلاء الذين يحاولون أن يفهموننا، كلما عرفوا معلومةً عنا جزعوا وضاعوا في تعقيداتنا أكثر

نحن ذباب يُدعَس. يظنون أننا نعشق العيش في اللحظة لكنهم مخطئون. نحن فقط نحاول إلهاء أنفسنا عن مآسينا الصغيرة، فننتهي إلى طرح أسئلة كبيرة بلا أجوبة تضيف مآسي جديدة إلى سابقاتها.

وأنا أحاول أن أشيح بيدي الذباب الكسول عن التفاح، فكرب بكل ذلك. حولتُ نفسي إلى حشرة. ولما فعلْتُ، قلت أن السرب الحائم ربما ينتظر موته غداً أو بعد غد. وإذْ فطنْت إلى ذلك، توقفت عندها عن طرد الأسراب وحاولتُ الإصغاء إلى صوت خفقان أجنحتها الخافت، لكن أذنيَّ لم تلتقطا أي صوت يُذكَر

لحظتها، رن الخليوي. نظرت إلى شاشته لأجد رقم أمي، فأطفأته.

ها أنا، قمت بمقابلة مع الذباب لا تحوي لا أسئلة ولا أجوبة. فقط، نظرت. فكَّرت أن أجمل المقابلات هي هذه التي يكتفي فيها المتقابلان بالنظر بدءاً، يكونان متوجسيْن. ذرات الهواء بينهما مضطربة. ثم يخف الاضطراب، ويكثر التقاء العينين المتعمّد. هنا، يعلو الاضطراب ويخفض حتى يصلا للمرحلة التي يصبح فيها التقاء النظر عادة. مع الاعتياد، يُعْدَم الاضطراب. ومع إطالة أمد العادة، تأتي الدهشة من نَظَرٍ تذكَّر المتقابلان فجأة أنهما لم يسألا

ما سببه. وتلي الدهشة الابتسامة، ثم الضحك الهستيري، ثم تماسا جسدياً يدلّل على تعاظم هستيرية الضحك. كل ذلك بدأ من نظرات صامتة. كل ذلك تفجَّر من لا شيء.

هل تنحو الأمور دائماً وحصراً هذا المنحى؟ طبعاً لا. من قال هذا؟ أنا؟

ذباب أو فراشات، لا يهتم بعضنا. جميعها حشرات. أصعب من أن يميَّز بعضنا بينها. ننشغل أكثر، نميِّز أقل، نعمَم أكثر، ننشغل في إصلاح ما خلفَتْه أحكامنا من أخطاء أكثر.

تنظر ماريا إلى الفراشة الهامدة في زاوية السقف فوق. وتقول لي ما معناه أن رسالة من سريلانكا ستصلها غداً أو بعد غد. كل مرة كنتُ أضحك، كل مرة كان يصدق توقعها.

تنظر إليَّ. تحضنني. تقبلني. أنا المراهق السمين مع بعض حب شباب طاف على سطح بشرتي. تفعل كل ذلك لأني أشبه ولدها. هو يريد أن يصبح شرطياً. هي لا تريده أن يسلك ذاك الدرب. الشرطيون يقتَلون في سريلانكا، تُفهِمني. ستبعث له نقوداً، تقول. يريد أن يصبح شرطياً من أجل النقود. ستتركه عاطلاً عن العمل، ستبعث له نقوداً، ستحاول قدر الإمكان إبقاءه حياً.

الفراشة تقول لها أن «مكتوباً» يشق طريقه إليها. قالت لي مرة أنها فتحت باب البراندة، فوجدت خمسة فراشات تلفظ أنفاسها على العتبة. حصلت عندها على رسالتين بريديتين، اتصالين هاتفيين، وخبريَّة تفصيلية عن عائلتها من زميلتها العائدة للتو من سريلنكا إلى لبنان.

غيبيات؟ لا بهم. لا يهم فعلاً. ما يهم أن مثل هذه الأمور تحصل، ولن أضيِّع وقتاً في البحث فيها. أفضِّل إضاعة الوقت في الملل المُنتَقى.

هل مِن ملل مُنتَقى؟ طبعاً. أنا مثلاً، أمضيت أعواماً أعلك الملل. أنا الآن أفكَر بكل ذلك ولا أصدِّق أنّ كل هذه الأعوام مرَّتْ. كيف؟ فعلاً، كيف؟

أعرف أني أحظى بدقائق غاية في الضغط العاطفي. أحاول كبت مخزوني من الذكريات. أحاول فعل ذلك لأقلِّل –لأقلِّل فقط ولا أتجنّب- النزيف الدامي القادم.
أتوقف عن التذكّر، وأعود إلى الفراشة. أفكّر في إمكانية كون ما يحدث الآن مقدمة لشيء أعظم وأكبر. كيف تبدأ كل هذه الأمور. كيف؟ أريد أن ألمس المسببات! أستعيد نظرية «تأثير الفراشة» لإداوراد لورينتز، لأنتبه أنّ كل شيء معي يبدأ من لا شيء.

أنا الذي أعتزم كتابة رواية، فأفكر في حدث أبدأ به الرواية أو أنهيها به أو حتى أمر عليه في منتصفها، أين أنتهي؟ أنتهي بأن يصبح هذا الحدث نفسه أكثر الأحداث ثانويةً في مشروع روايتي! أنتهي إلى مكان لا أتوقعه وإلى أحداث لا أتوقعها وإلى تفاصيل لم أتخيَّل يوماً أني قد أكتبها.

هل هي رفة أجنحة الفراشات التي تتلاعب بي، فتقذفني إلى مواقع أخرى؟ هل أستطيع فعلا أن أفسّر وأربط بين التأثيرات المتبادلة والمتواترة التى تنجم عن الحدث الأول الأبسط، عن فكرتي الأولى؟

تضيّعني كل هذه الأفكار، خاصةً أنها تظهرني رجلاً ذا إنتاجية روائية، فيما أنا حتى الآن لست مقتنعاً بما أكتبه، ولم أتجاوز حتى الآن مرحلة تمزيق الأوراق المطبوعة!

الخليوي يرن. أمي من جديد. أمي لا تمل، أمي لا تتعب.
آلو؟

-١٥-

لن أكتب عن ماريا، ولا عن أمي ولا حتّى عن الذباب والفراشات. لن أكتب عن أي من ذلك، فأنا لم أتواصل مع أحد أعرفه منذ قرابة شهر انقطعت لشهر عن العالم. ديالا تحضِّر لامتحانات الجامعة. تقول أنها بحاجة لدهر لتدرس كل المواد التي فوّتَتها وهي هنا. تقول أنها ستبتعد قليلاً حتى تمرّ الفترة. ستدعني أكتب وسأدعها تدرس. بقيت في الغرفة لفترة ليست بقليلة حتى مضغت الملل. لم تعد حالة الزهق هذه لذيذة. اجترَرْتُها. ها أنا أمشي وحيداً على الأرصفة، وكلما لمحْت أحداً أشحت بوجهي بعيداً إلى زاوية أخرى، وإذا ما قمت بخطوتي هذه متأخراً ولمحني الشخص، أقوم بالابتسام له من دون أن أقطع الشارع لأبدأ حديثاً معه.

لم أعد أملك الطاقة لأتعامل مع البشر، جدداً كانوا أم أعرفهم حق المعرفة. السيلليولير منفيّ على الكومودينة منذ أيام. أرفعه، أنظر إلى شاشته لأجد ١٧ ميسد كولاً. خمسة منها تظهر اسم أمي. غالباً ما لا أرد على أمي. لم أستقل بعيداً عنها في هذه الغرفة لأتكلم معها خمس مرات في اليوم على الخليوي. في البدء، تجاهلت اتصالاتها لأيام قبل أن تقل اتصالاتها شيئاً فشيئاً. كنت أتجاهلها وأسأل جارتها المقرّبة عنها، مع تأكيدي بأن لا تخبرها عن اطمئناني عليها.

أنظر إلى شاشة السيليولير وأقوم بالحسبة. خمسة إتصالات في ١٠ أيام، أي بمعدل اتصال واحد كل يومين. جيد، أفكر.

كريهٌ هو هذا الفندق الذي اعتدنا اللقاء فيه أنا وديالا. لكن قربه من الجامعة ورخصه يشفعان له. هنا اعتدنا أن نلتقي. استأجرنا الغرفة لشهر واحد. ثم لشهر ثانٍ ثم لثالث، حتى صارت مكان لقائنا الدائم. كريهٌ هو هذا الفندق، لأنّ من يصعد للمرة الأولى درجه المفروش بالموكيت القديم الباهت اللون وينظر إلى ورق الجدران الذي سقط بعضه في المطارح، كاشفاً الجدار الملوّث بالصمغ تحته، يحكم جازماً أنه مكان للقاءات الجنس العابرة التي تدوم ليلة أو ليلتين على الأكثر الإحساس الأوَّلي هذا لا يعدو عن كونه خاطئاً سببه منظره الرديء الخدَّاع. هنا يصمد كراهية بعض طلاب الجامعة الأميركية. الفندق قريب من الجامعة،و«أبو رخّوصة».
وفي هذه الحالة، من يأبه لجمال المكان؟ هؤلاء تلاميذ أكثرهم فوضويون، لا يأتون إلى غرفهم إلا ليناموا أو ليدرسوا قبيل امتحاناتهم.
بشعة هي هذه الحجرة رغم كل محاولات ديالا في بادئ الأمر لتجميلها. لم تنجح فتوقفت عن المحاولة، وظلّت الغرفة على بشاعتها. لا تفعل ديالا الآن إلا شيئين: تنظيف الموكيت والحمام والمطبخ الصغير (قدر المستطاع، فهو ميؤوس من أمره)، وتعليق أفيشَيْن أو أكثر.

لطالما كانت ديالا مفتونة بأفيشات الأفلام.

هيدا حلو ولا هيداك؟

تسألني مشيرةً إلى الأفيشين، الذي بيدها وذاك المعلّق بمسمار دقيق صدئ على باب مدخل الغرفة.

أنظر إلى الأفيشَيْن، إلى الرسومات أو الصور المستخدمة، أختار أحدهما. أشير تحديداً إلى الملصق الأكثر توافقاً مع مزاجي الآني. أعرف أنها لو سألتني غداً السؤال نفسه ولو عرضت الأفيشَين نفسَيْهما حينها، أنني سأختار الأفيش الآخر.

تعشق ديالا الأفيشات. تعلَق اثنين أو ثلاثة منها في أرجاء الغرفة وتفتح اللابتوب الماك الأسود الخاص بها لتكمل الخربشة في برامج التصميم أو تعمل على مشروع إما طُلب منها في الجامعة أو التزَمَت به لقاء مبلغ مالي. تقول أنها منذ تعرَّفَتْ علي، والأفكار تنهمر عليها من حيث لا تدري. لا أجد سبباً مقنعاً لذلك. الحب؟ بالعكس. أعتقد أنني إنسان منهِك في هذا الموضوع. كتوم ولا أتكلم. أصمت دهراً وأنطق عهراً. لما أتكلّم، أعود –بيني وبين نفسي- لأستذكر كلامي بعد مضي يومين أو أكثر عليه. أفكّر أنني انتقيت موضوعاً رديئاً أو جملة رديئة. أجلد نفسي أكثر، وبالتالي أصمت –لاحقاً- أكثر

أفكر برداءة هذه الجمل التي تملأ الحياة. نبدأ بها، ونختم بها. «شو في ما في؟»، «كيف الحال؟»، «وين ما عم نشوفَك؟»، الجمل التي تحتوي اسم الله (الله؟)، ونستخدمها من دون أن ننتبه لمعناها، بحكم العادة. تعبِّئ الهواء. تردم الفراغ والصمت غير المرغوب. هي أبواب سهلة لافتعال حديث ما قد يكون روتينياً في كثير من الأحيان. أنا أقتصد في استخدامها من دون أن أفلح في تغييبها كلياً، ولهذا أصمت أكثر. لكي لا أقع في مزيد من الكيتش المعفوّ عنه.

لكن مراقبة هذا الكيتش كله، يقتلني. يزيد من وحدتي ويرميني خارج الدائرة الاجتماعية بأكملها. ألاحظ ذلك، بل قبل أن ألاحظه، أعرفه.

ما زلت أبتئس عندما أرتعش وأنا أشاهد فيلماً عربياً يحوي حدثاً سياسياً جللاً ومعاداً حدَّ الملل (خطاب تنحي عبد الناصر مثلا). جسمي ينصاع للكيتش، ولا يخضع لسلطتي. جسمي يهرب باتجاه منتصف الدائرة وعقلي يحاول الخروج منها.

لكني أرضى بكيتش صادر من أو موجّه إلى ديالا. أتنازل. الأمر غريب ولا أستطيع تفسيره. ربما لأنها لا تجدني مُنهِكاً لها بعكس كثيرين تساقطوا في دائرة النسيان لدي.

تقول ديالا أن أفكارها فاضت منذ تعرَّفَتْ عليّ. تنظر إلى أفيش فتلمح تفصيلاً فتبني عليه فكرتها الجديدة. أحدّثها عن كاتب أو حبكة قصة أو لفظ أدبي أو ظاهرة ما، فتتلقّف كل ذلك وتخرج بمشروع كامل. لا تتعمق في الموضوع. تكمش فكرة صغيرة. تأخذ قشطة اللبن التي تطفو على السطح. لكنها رغم سطحية المعرفة هذه، تنجح. عملها مبني على البهرجة بلا فزلكات. لا تحتاج لكل ذاك التعمق. السطح يكفيها، والتصميم يفعل فعله ويطغى على الفراغ.

الكيتش؟

صغيراً، اقتربت مني عمة أمي، وضعَت في كفي نقوداً وطلبَت مني أن أركض إلى محل محدَّد لأشتري لها صحوناً.

«بس جِبلي هيدول الصحون اللي مرسوم عليْهن روميو وجولييت!»

فوجئت وأنا أشتري الصحون من البائع بغلوّ ثمنها. استفسرْت من البائع. صحن أبيض بخط ذهبي عند الاستدارة مع رسمَيْن رديئيْن لروميو وجوليت، ما سبب غلوِّ ثمنه؟ أجابني متأففا وكأنه يتحدَّث مع جاهل.

بيروت كلا بتشتري من هاي الصحون يا عمّو!

وهكذا كان. عذّت بالصحون. كان يوم عزاء، وكانت مأدبة غداء. نظرَت عمة أمي إلى الطاولة فلاحظَتْ أن عدد الصحون غير كاف. أعلنَت حال طوارئ. شدّتني من ياقة قميصي لتشعرني بمدى جديّة الوضع وقالت لي بنبرة حازمة.

انزال عند أم ربيع عالطابق التاني جيب صحون. متل هيدول. متل هيدول. شو فهمت؟

وأشارت بإصبعها إلى صحون الطاولة.

هرْعتُ نازلاً إلى الطابق الثاني. دخلْتُ إلى منزل أم ربيع وكان لي الحظ أن أكون جزءاً من هذا المشهد الأسطوري الآتي:

أم ربيع تربِّت على كتفي مبتسمة. أم ربيع تمشي وأنا ألحقها. مشية بطيئة أشبه بمشيات الممثلين في المشاهد الأساسية من الأفلام. أم ربيع تمرُّ من باب غرفة الصالون وتتقدم باتجاه زاوية الغرفة حيث تقبع ساكنةً خزانة «الصيني». تفتح الخزانة وتطلب مني أن آخذ ما أحتاجه ببالغ الحذر. أنظر لأجد صحون روميو وجولييت وتوابعها تملأ الخزانة من أعلاها إلى أسفلها. فائض من العاشقيْن المرسوميْن على صحون. (بعد ذلك بزمن، سأجد مثل هذه الصحون تباع على بعض الأرصفة في أسواق بيروت الشعبية).

عاشقان على صحون كوّنا جمال عمة أمي المعمَّم. كوَّنا جمالا لا مجال فيه للتميّز. حسن الضيافة يقتضي استعمال صحون روميو وجولييت. الغالي بات قاعدةً رغم رداءة صنعه المفرطة. الغالي -بالضرورة- أصبح جميلاً.

ديالا قالت لي أكثر من مرة أنَّ هناك شيئا ما يجذبها إليّ، لكنها لا تعرف أن توصِّفه. لو التقطت فكرة الكيتش كما تلتقط أفكارها بسطحية، لقالت أن هروبي الناجحَ منه هو السر. لكنها مخطئة. أنا لا أنجح في الابتعاد عنه دائماً. (أعرف نفسي تماماً).

رغم ذلك، لا أستطيع التضحية بمشروع كيتش محتَمل وغير كامل، ولو حتى اكتمل وظُهِّر واضحاً أكثر بعد حين: الحب.

الوهم الرديء بكل تفاصيله الباهرة.

لا. ليس كيتشاً. أقنع نفسي. أصمت، وأفكر: «لو تعلم كم من الكيتشات أضبط. لو تعلم».

طب هيدا حلو؟

تقول وهي تشير إلى الأفيش. أومئ إيجاباً، وأبحث عن حمرة خديّ الضائعة.

-١٦-

حياتي مجرد أفيش. لحظات كثيرة اختصرَتْ إلى لحظة واحدة ومن ثمَّ طُبِعَت على ورق. لا تستطيعون اختصار حياتكم في ملصق؟ أنا أستطيع.

أنا الذي ابتدعْت أصدقاء خياليين في فترة ما من طفولتي، أختصر حياتي في ملصق واحد. جسد بثلاثة رؤوس الرأس الأول لي قبل أن أبدأ علاقتي بديالا، الثاني خلال الفترة الأولى لعلاقتي معها، والثالث لي الآن. لما أنظر إلى رؤوسي ألحظ اختلافي في المراحل الثلاثة. في الرأس الأول أبدو سمين الوجه، كنت أبتغي ما لم أكن أستطيع الوصول إليه حينها. في الرأس الثاني وجهي أكثر اعتدالاً، مع وصولي لمن أبتغيها. وفي الوجه الثالث أصبح أقل أكتراثاً. أقل في كل شيء. الاعتياد واللا اهتمام واضحان وجليان في نظرتي وشكل وجهي. حتى بشرتي تبدو هرمة.

من أين أتى كل هذا التعب؟ أهو كمال ما صبوْت إليه وحصلت عليه؟

يا رؤوسي الثلاثة، اقضمي بعضك. إدخلي درب الانحطاط التآكلي. تخلصي من نفسك بنفسك. يا رؤوسي، وزَعي اهتماماتك بلا تضاد. الرأس الأول يهتم بالحب. الرأس الثاني مسؤول عن الاجتماعيات. الرأس الثالث مسؤول عن الوحدة المملوءة شتائم.

ركِّزْ يا رأسي الأول في الحب من دون أن تغرق في التحليل فالإغراق مأساة ودربٌ يوصل للهاوية. ويا رأسي الثاني، تعلَّمْ أن تتملـّق. تحكّمْ في عضلات الوجه. إجعلني أبتسم لما يجب، وأظهِر المواساة لمّا يجب، وزدْ في مواساتك حتى تحويلها إلى شفقة متى يجب.

ويا رأسي الثالث. إنتقم من الرأسيْن الأوّليْن بالشتيمة. إستلذّ بالوحدة حدَّ الشتيمة. أشتم الرأسين الأوّليْن. أشتم حتى رأسك الثالث الذي سمح لك أن تشتم!

يا أفيشاً يبتلع نفسه في مركزه. يا أنا! ماذا تفعل يا أنا؟ لمَ لا تحافظ على السعادة؟ لم لا تحافظ حتى على التعاسة؟ لمَ تضيع كل شيء وتمثِّل في كل شيء كجندي فخور وجد فجأةً جثة غريمه أمامه فأخذ يشوه بها؟ لمَ تغرق بالتفكير في أيّ شيء حدَّ اللا قناعة في كل شيء؟ حتى المتناقضات لا تقبل أيًا منها!

ماذا أفعل؟ لمَ أدوِّن كل هذا أصلاً؟ أنا الذي لم يدوِّن يوماً يومياته لم أفلسف الأمور العصيّة على الفلسفة؟ إنَّ هذا لهو قتل موغلٌ في بطئه.

/

وينَك؟

يرن الهاتف. تسأل ديالا.

أنا بالأوضة.

عم تكتب؟

هيك شي.

طب. أنا ما ح إقدر إمرق اليوم. الامتحانات.

بسيطة.

إنت منيح؟

إي. إنو هيك شي.

الأفيش لا يعترف إلا بلحظات محددة لكل من وما وُجِدَ عليه. الأفيش لا يعترف إلا بزاوية ضوء واحدة أو زاوية عتمة واحدة لأيّ شيء التقطته العدسة ووضعته عليه. رغم كل الفوتشوب والأشياء المرسوم بوسائط كمبيوترية، يبقى الأفيش لحظةً واحدة صامتة وإن كان بالأساس تجميعاً لأكثر من لحظة.

لكن من يجمع لحظاتنا نحن في موقف وحيد، لينتج المشهد النهائي؟ وهل من مشهد نهائي حقاً؟ إن أهم المشاهد هي تلك التي نتواجد ولا نتواجد فيها في الوقت ذاته. تلكَ التي نذكَر فيها من غير أن نتواجد جسدياً. تلك المشاهد التي نمدَح فيها أو نذَمّ من دون أن نكون حاضرين للدفاع عن أنفسنا. تلك المشاهد التي

نعرف بعضها، والأهم منها هي المشاهد الأخرى التي لا نعرف بها والتي تؤسس لأحداث لاحقة قد تبدو فيما بعد غير مفهومة!

«إنّو.. هيك شي!»

-١٧-

أخيراً. انتهَت فترة الامتحانات. مرَّت عليَّ ديالا. «هلأ ضهِّرني. معي شوية مصاري بدي اصرفن. دخلك شو ناقص أكل؟»، قالت وهي تفتح البراد. صُعقَت لخلوِّه من أية مواد غذائية. نظرَت إليّ بشي من تأنيب وأضافت: «فالج ما تعالج! قوم لنروح عالمونوبري!»

لم أتعرَّف على صديق المدرسة الذي التقيته صدفة في أحد أروقة المونوبري. هو تقدّم ليسلّم علي. لم أتذكر اسمه في بداية الأمر. صمتُّ في البداية لأنني لم أملك شيئاً لأقوله. شعرتُ باصطغاب خدّيَّ. تبا لا أتذكر اسمه! ماذا ينتظرني أن أقول. ثم لجأتُ إلى الحيلة الأقدم. أشرْت بيدي إلى ديالا الواقفة بجانبي وقلْتُ اسمها مقدِّما إياها له فصافحها ذاكراً اسمه.

«هلال شومان»، قال.

تذكرته لحظتها وتذكُّرت كم كنت أمقتُه. كان يجلس في الصف الأمامي دائماً. وإن صدف وجلس في مقعد في وسط الصف أو في الخلف، نادتْه معظم المعلّمات ليجلس في مقعده المعهود أماماً تحت ناظريه. لا يتورّع عن إجابة أي سؤال. ولما يمنعنه من الإجابة حتى يتيح المجال للتلامذة الآخرين، يمتعض.

أما أنا فكنت محبوباً من المعلمات رغم توسط مستواي مقارنةً به. لم أكن أيامها شاطراً في الدراسة، قبل أن تنقلب الأمور في الجامعة.

في المدرسة، كانت المعلمات يشفقْنَ عليّ. جسدي الضئيل آنذاك، قبل أن أنتفخ، كان يشفع لي رغم العلامة المتدنية التي أكون حصلْتُ عليها. أكثر من ذلك، تورّد وجنتيَّ كان يساعدني أكثر. كأنَّ هذه الصفة كانت تظهرني أصغر من عمري. عادةً ما كانت المدرِّسة تلتفت إلي لتسألني سؤالا فتجدني متورّد الوجنتين حدَّ الامتقاع باللون النبيذي، فتتخطاني وتسأل غيري كي لا تحرجني. تحسن الظن فيَّ دائماً. لم تكن تعلم أنني كنت أنظر إلى مؤخرتها أو تحت إبطها وهي ترفع ساعدها لتكتب على اللوح، وأنَّ الدم كان يجري تحت بشرتي.

لكنّ الفتيان في المدرسة لم يرحموني. كانوا يقولون لي أنني أحمرُّ كالبنات، وكنت أغضب منهم جميعاً وأكرههم، وأكره هذا الجالس في المقدمة بالذات. هذا المستعرض الذي يمظهر نقص كل واحد منا.

لكنني، تلك اللحظة في «المونوبري»، شعرْت بشيء من التفوّق لما قدّمْتُ له ديالا. عرَّفتُها على أنها «صاحبتي». لم أعرفها كحبيبتي. لا أعرف لماذا. ربما لأن الحبيبة في عراكات الرجال الاستعراضية تبدو كنقطة ضعف ما أو كهزيمة مدوية للرجل الذي يريد مظهرته. لا أدري.

هذا المستعرض القابع في ذاكرتي المدرسية بدا لي تعباً لحظة

رأيتُه، رغم ابتسامته. أومأ بكلمات غير مفهومة من مثل تلك التي يتفوه بها الناس في لحظات الإحراج. أذكره منطلق الكلام أكثر الآن يبدو لي أكثر صمتاً. أكثر تعباً. كأنه وصل لنهاية طريق ما وتفاجأ بأرض جرداء لم تكن في حسبانه لما انطلق في رحلته. سألتُه عما يفعله الآن. قال أنه عاد من الخارج بعد أن أنجز دراساته العليا. سألته لـمَ لَمْ يكمل دراسة الدكتوراة. قال أنه سئم العلم. أضاف أنه يبحث عن عمل. «هون؟»، سألتُه. «هون وبمطارح تانية»، أجاب. سألتُه منذ متى هو هنا. قال منذ سنة. سنة عاطلاً عن العمل؟ لا عجب أنني خرجْتُ بحكم أولي سلبي من مجرد طريقته في الكلام. قلْتُ في ذاتي أنه سيتخطّى هذه المرحلة. لم أعرف تفاصيل ما يمر به. أعرف أنه لم يكن بصحبةٌ أنثى لما رأيته. وهذا كان يكفيني في تلك اللحظة. كأنني انتقمت من كل زمن الدراسة ذاك الذي كان يتقن فيه هو فنَّ الاستعراض وكنت أنا أعيش خيبتي وانهاكي الذي استمر لأعوام طوالٍ تالية. ضحك الشيطان القابع في داخلي مستنتجاً: حان زمن خيبته. غرف من الاستعراض والمحبة اللذين كان يحظى بهما ما يكفيه، وحانت ساعات إحباطه.

قال لي أنه كتب بضع مقالات في جريدة السفير، ملحق شباب تحديداً. ابتسمْت ببرودة. هذا الخائب تعلّم أن يكتب؟ أذكر أنه كان يحصل على علامات عالية في حصص اللغة العربية لكنني

متأكد أنه كان يفعل ذلك كما يفعل في الحصص الأخرى. ليحصّل العلامات لا أكثر. أذكر أيضاً اليوم الذي سقط فيه في امتحان المنطق الأول. نعم. أذكر هذا اليوم التاريخي بالتحديد لأنه كان كَرِباً عليه. لم يثرثر كما عادته ذلك النهار. قالت المعلمة، وهي تعطيه ورقة إجابته، أن أفكاره تفتقر للتنسيق ولا يحكمها أي منطق. ظل يجاهد ليحصّل العلامات في هذه المادة كما يفعل في مواد أخرى. لم يؤهله جهده إلا لينجح المادة بعلامة على حافة المعدّل. وصار يعلن أمام التلاميذ في فترات الغداء مقته لمادة المنطق، ويسأل عن الداعي من تدريسها في صفوف العلوم الاختبارية.

كان أمامي. وكنت أشعر أنه يعيش حصصاً متوالية من مادة المنطق التي درسناها سويةً ذات يوم.

حرصْت في الأيام التالية أن أهاتف صديقي الصحفي لأطلب منه أعداد أيام الأربعاء من جريدة السفير للعام الماضي. طلبت ٥٢ عدداً غطت ٥٢ أسبوعاً. سألتني ديالا عمّ أفعله. تذرَّعت بالرواية. قلْتُ أنني أقوم ببعض الأبحاث حول فكرة خطرت لي. صدّقتني وتركتني منكباً أقرأ في الجرائد المكدّسة حولي.

وجدْت له ما يقارب العشرين مقالة. لم يعجبني منها إلا مقالتين أو

ثلاثة. فيما بدت المقالات الأخرى مواضيع إنشائية تفتقر للمنطق. تحاول أن تقول كل شيء فتنتهي بأن تقول لا شيء. ظهر لي أنه لا يفقه في السياسة شيئاً يذكر لست أقول ذلك لأنني قد أعارضه في بعض الآراء أو التلميحات. على الإطلاق. لكنه طوباوي في كتابته في زمنٍ فقد فيه رجال الدين طوباويتهم وتعاطوا السياسة باحتراف!

على العموم لم تعجبني إلا ثلاث مقالات، وهي جميعها تنتمي إلى النوع الأدبي التي يتخذ من تلميح سياسي أو خبر ذريعةً لمقالة كاملة، والأهم ذريعة لنشرها في صحيفة. لكنها رغم ذلك، لم ترقَ بمستواها لأن تكون جديرة بالنشر في الصفحة الثقافية. بدا أنه يحاول ويجهد في كتابته ويفشل تماماً كما في مسابقات المنطق تلك.

هه! يا لتفاهته، فكرت. فليقرأ الرواية التي سأبدأ بكتابتها في المستقبل القريب وليتعلّم!

-١٨-

ضحكتُ لما طلب مني صاحبي المتدرّب في إحدى المستشفيات السويديّة أن أدوّنَ يومياً ما يزعجني وما يريحني، ما أكره وما أحب.

قال: «عليك أن تدوّنَ كل مشاعرك، لحظة شعورك بها أو في أسرع وقت ممكن بعد حدوثها. عليك أن تصل بنفسك إلى حالة الحياد. أن تتحكّم بمشاعرك، فتغضب وأنت تعرف مقدار غضبك، وأن تكبتَ قدراً - تستطيع بعدها أن تقيسه - من الفرح».

قال: «إسمع. إن أي تذبذب شعوري يوصلك إلى رؤية الدم. أنت لا تريد أن ترى هذا. أنت أصلاً تريد أن تتخلّص من كل هذا».

قال: «عليك أن تدوّن كل شيء، وأي شيء تافهاً بدا لكَ أم مهماً».

ضحكْتُ في سرِّي لطلبه، فأنا لا أفعل إلا هذا منذ زمن بعيد، وإنْ كنتُ أكتفي بالتفاصيل التافهة، إذْ لا أشياء مهمة حولي. ضحكْتُ لأني أُمَنْطق كل شيءٍ حولي. حتى الأشياء التي لا تَتَمَنْطق، أُمَنْطقها.

بعد فترة، أرسلْتُ له بقصاصات. أربعة أحداث أغرمْتُ بها، وأربعة تفاصيل كرهتُها حدَّ العمى.

١- لطالما كرهْت مداراة أمي لي: «انتبِه. بجبلَك بعد شي؟ شو بدَّك تاكل؟ وين رايح؟ إيمتى راجع؟»

٢- صرْتُ أيضاً أغضب من طلبات ديالا الدائمة: «نزال جيب غراض. ليش عملت هيك. شو هيدا. ما تعمل..»

٣- أنا أمقت الصدف غير المحضر لها، كالالتقاء بصديق (قديم طبعاً لأني انقطعْت عنهم منذ زمن). هذه الصدف تقضي على مشاريع يومي التي أكون قد قمت بالتحضير لها في وقت سابق، رغم قلة هذه المشاريع.

٤- أشعر بالحياد تجاه أبي حتى بعد موته. لا أشعر بشيءٍ البتة لمّا أرى صوره المعلـّقة مع شرائطها السوداء.

٥- أعشق النوم لابساً الجوارب الصوفية حتى في عز الصيف.

٦- أكره لبس الفانيلات (خاصةً البيضاء منها) تحت ثيابي.

٧- أعشق متابعة كل أنواع الرسوم المتحرّكة، القديم منها والجديد.

٨- أحب أن أشاهد الأفلام وحيداً في عروض الساعة الثانية بعد الظهر

لما نظرْتُ إلى الرسالة لإلكترونية بالفقرات الثمانية قبل أن أرسلها، شعرْت أنني سنفور غضبان. هذا السنفور «العرص» على حدَ قول أحد أصدقائي القدامى.

لو قـُدّر لسنفور غضبان أن يشاركني اللعبة أعلاه، لاكتفى بتفاصيلٍ

أربع من الثمانية. تلك الخاصة بالكره. لكنّ سنفور غضبان رغم كونه «عرصاً»، ما زال فرداً في جماعة «الطيبين» في مواجهة «الأشرار». إنه يحاول أن يميز نفسه عن «الطيبين» بتكراره بعضاً من جمله البادئة بفعل الكره. يحاول أن يفعل شيئاً ليس بمقدور أفراد الجماعة الآخرين على الإطلاق. لكنه يخدع نفسه. يكتفي بجمَل تجميلية فقط، تظهر عكس ما يضمر

لمّا نظرت إلى رسالتي، لحظْتُ كمّ التبسيط الذي يعتريها. كأنّ سنفور غضبان فعلاً هو الذي كتبها. محوْتُها. واستبدلتُها بكتابة يوميات بسيطة وسخيفة لأيامي.

لم يكن ينقصني إلا اليوميات لأشعر أنني أراقب نفسي بنفسي. أحسست أنني في برنامج «الأخ الأكبر»، أؤدي دوراً أنا مجبر على لعبه. تعبْت. توقفت عن التدوين.

ثم قلت لنفسي: طيب. فلأكتب يومياتي بأسلوب أدبي. أنا أصلاً أفعل هذا في معرض كتابتي لروايتي.

وفعلْتُ ذلك. صرت أكتب عن أدق تفاصيل نفسي: كيف أنام، عدد المرات التي انقطع فيها نومي هذه الليلة، تفاصيل الأحلام التي أراها، المشاعر التافهة التي تظهر لأقل وأتفه سبب، فشلي في

انتقاء لون الملابس الذي أريد أن أرتديها بعد انقطاع عن الخروج، الشرود النفي أصابني وأنا أنظر إلى تلك المجموعة من الأطفال أسفل نافذتي، اكتشافي لدرج ديالا ذي الأغراض الخاصة، تفرُّسي بثيابها المتروكة في الخزانة الصغيرة في زاوية الغرفة، وقوفي أمام قناني العطور التي لم أستخدمها كاملةً يوماً، اكتشافي لأعداد بناطيل الجينز الأزرق المهولة التي تحتويها خزانتي، بقايا العلك الزهرية التي اكتشفت أنَّ أحدا ما – من الساكنين قبلي في هذه الحجرة- ألصقها أسفل خشب السرير

وصل بي الأمر حتى إلى تدوين كل الجمل المحكية التي استخدمها من قابلْتُهم اليوم. صرت أدوّنها وأفكر في أصلها فلا أجد لها أصلاً ولا أجدها منطقية على الإطلاق. أدونها على جنب وأقول أني سأعود إليها وأنني يوماً ما سأؤلَف قاموساً لهذه الألفاظ والعبارات والجمل مع أصولها.

وبعثْتَ بكل ما دونْته إلى صديقي.

قال: أنا لم أطلب هذا. أنتَ تهرب مما تكره باستطرادات وتبريرات».
قال: «لم أطلب أدباً وفزلكة. طلبْتُ فضفضة إنسان عادي».
لم أعد لأرسل له شيئاً. توقفتُ عن الردّ على رسائله.

هذا أسبوعٌ آخر مضى عليَّ هنا في هذه الحجرة، ولم أكتبُ بعد حرفاً واحداً في روايتي. بدأتُ البارحة بالحكاك. أعتقد أن السبب هو الشراشف التي لم تغسَل منذ عشرة أيام.

أسبوع مضى على إغلاقي الستائر لا أعرف كم يصمد التلفاز قبل أن يحترق أو ينطفئ كلياً فهو مدار منذ عشرة أيام. أكتفي بإخفاض وإعلاء صوته مستخدماً «الريموت كنترول» من موقعي في السرير. أكتفي بخطوات معدودة كل يوم. من السرير إلى الحمام وبالعكس. من السرير إلى المطبخ وبالعكس. بعض التلصص القليل من وراء ستارة النافذة لمّا أشعر بذلك الثقل الهائل داخل صدري ثم العودة للسرير.



تأففت ديالا عندما دخلَتْ الغرفة ورأتْني على هذا النحو.

إففف! ليش ريحة الأوضة هيك. شو كنت عم تدخِّن؟

لأ.

لكن شو؟ مقضاها ماستشوربايشن؟

لم أجِبْ. قبلتني على خدّي وقالت أنّ عليها أن تنظِّف الغرفة. فتحَتْ الستائر فأنهك ضوء الخارج عينيَّ اللتين اعتادتا ضوء المصباح المعلَّق الخافت. طلبت مني أن أبقى في السرير كي

لا ألبّكها. قالت أنها عازمة أن تنظف الموكيت القذر هذا، وبدأت مهمتها بلملمة الأغراض المتناثرة في جنبات الغرفة. جمعتها في مكان واحد. ثم انتقلت إلى تحت السرير بعدما رأَتْ جزءاً من قنينة مياه بلاستيكية زرقاء اللون تحته.

وْ إير. شو بتشرب وبتزت القناني تحت التخت؟

حبيبتي. ما تحكي عن شي ما عندك ياه.

ها. ها. ها.

(قالت كلٍّ «ها» منفصلة بفارق زمني صامت عن سابقتها. أقدّر هذا الفارق بثانية واحدة. ثانية كافية لإبراز سخريتها من جملتي التي تدّعي الذكاء).

تابعَت:

عم تتهضمن؟ تعا طلّ وشوف. شركة الصحّة فاتحة معمل تحت تختك.

أخرجَت القناني، وضعَتها في المكان ذاته ثم أدارت «الهوفر». خرج صوتها هادراً فيما بدأت هي تنظيف الموكيت متأكدة من المرور بخرطوم الماكينة على الزوايا صعبة التنظيف. لكنّها توقفت فجأة وأطفأت الآلة واقتربت مني سائلة.

حبيبي. إشبَك شي؟

تعبان. تعبان كتير.

قلْتُ من دون أن ينزلق مستوى صوتي إلى ذلك المستوى الذي يبغي استدرار العطف والشفقة. عاجل لساني دماغي فخرج هذا الاعتراف مني وأحسستُ بالندم فوراً.

جلسَتْ قربي في السرير وحضَنَتْني. لم تتورّد وجنتاي.

حضنتني لدقيقة ثم أبعدَتني عن صدرها ونظرت إليّ:
ذكّرني إني غيّر الشراشف. أوكي؟

في تلك اللحظة لم أكن بين يدي ديالا، بل بين ذراعَيْ أمي. خفت لهذه الصورة التي تراءت أمام من ماضٍ حسبْت أنني نجحْت في السيطرة عليه.

فزعْت.



-٢٠-

ما بأى تترك حالَك هيك!

قال الطبيب في غرفة المستشفى التي نقلتني إليها ديالا بعد الإغماءة التي ألمَّت بي وأنا أحاول النهوض من السرير قال لي الطبيب جملته وتركني أمام حبوب غريبة الأشكال والأحجام.

حبتان ثلاث مرات في اليوم من هذه الحبوب البنية المستطيلة، حبتان أربع مرات في اليوم من هذه الحبوب البيضاء الدائرية الشكل والدقيقة الحجم، حبتان من حبوب الحديد هذه.

أغلقت قبضتي على الدفعة الأولى، وبلعت. ثم شربت من الكوب، وقبضت على الدفعة الثانية، وبلعْتُ، ثمّ شربْتُ ماءً من الكوب.

بالشفا.

تسابقت كل من ديالا وأمي على أخذ الكوب مني. شعرْت أنني أمام توأمين مع فارق العمر والخبرة. كيف يتصرّف عقلي الباطن؟ كيف لم أنتبه إلى أن ديالا تشبه أمي إلى هذا الحد؟ هل كان يعرف عقلي الباطن كل هذا وقام بالسيطرة على جسمي كله؟ هل كنت لأشعر ذاك الشعور الغامض والكثيف لما كنتُ أرى ديالا من على بعد خطوات، ولاحقاً بين ذراعيّ، لو علمْت مسبقاً أنها تشبه أمي إلى هذا الحد؟

لا أعرف. أحياناً يخيَّل لي أن الأشخاص يشبهون بعضهم، وأشعر أنني رأيت هذا المشهد من قبل. أحسّ أنني أمام إعادة سقيمة لشيء مررت به سابقاً. أحياناً، أفكَر بكلمة من دون أن ألفظها فتقولها أمي في سياق حديثها الذي يكادُ لا ينتهي. حدث الأمر مع ديالا أيضاً. أو مثلاً تتجه كل منهما إلى زاوية معينة من الغرفة وتتحدُّثان في موضوع ما، فأحدس بجملتهما الآتية التي سمعتها قبل أن تأتيا، لكنهما تخيبان أملي و تنتقيان جملةً وموضوعاً آخرَيْن!

يحدث هذا معي دائماً. كأنني أمام صورتين متشابهتين إلا من فوارق سبعة، تماماً كلعبة الفوارق في صفحة التسلية من الجريدة اليومية. أحاول العثور على هذه الفوارق، فلا أفلح لما أريد ذلك حقاً، ولمّا أهمل الأمر برمته تتجلى أمام ناظريَّ، فآخذ أؤنب نفسي على هذا الفشل الذريع.

وهكذا، أنسى هذه التساؤلات فيما بعد. أقول أنني كنت أمام لحظة شعوريّة مكثَّفة تحجب عني الفوارق. أعلم أن الشعور الزائد أحياناً يقتل الإنسان ببطء. لكن، كيف لي أن أعرف القدر الكافي من الأحاسيس؟

كيف؟

- ٢١ -

مات أبي صيف العام الماضي. مذ إذاك، تنظِّف أمي قبره كل أسبوعين. تنهض صباحاً. تدع الخادمة السريلنكية ماريا نائمة، تأخذ العدة، تضع الفولار الأبيض الرقيق فوق ثوب أسود تختاره من أثوابها الكثيرة، ثم تنطلق إلى المقبرة. (بعد وفاة والدي، انقلبت خزانة أمي سوداء، وظلت لفترة طويلة تلبس الأسود).

صمتَت شهراً ثم تكلّمت من جديد، بعد أن أكثرْت من زياراتي لها. فكّرْت أنها بحاجة لشخص يؤنس وحدتها. ظللت أزورها على هذا المنوال أشهراً، ولما تأكدت أنها لم تعد بحاجة لي، توقفت عن زيارتها.

هذه الأيام، تقضي ماما وقتاً أطول مع ماريا.

أبي قال لماريا ذات مرة:
إذا بتقوليلي مستر، بْرَجْعكْ ع سريلنكا.
أجابته بإنكليزية غريبة:
أوكي مستر.
شتمها، شتم أمي، ودخل غرفته وهو يبربس.

لا تزال أمي تذكر أدق التفاصيل المتعلَقة بأبي، وتكثر من استذكارها عشية كل زيارة لقبره. لما تنهض في الصباح، تكون نشيطة. هكذا أخبرَتـْني ماريا أكثر من مرة. تلبس ثوباً أسود من أثوابها الكثيرة وتنطلق إلى المقبرة. تتكوّن عدتها من سطل أصفر، قنينتيْ صابون سائل، ليفة، بعض الخرقات التي غسلَت أكثر من مرّة حتى تصلَّب لكثرة ما نشفت تحت الشمس. (مرة، ذهبت إلى سوريا لتشتري خصيصاً سوائل تنظيف قالت عنها أنها ممتازة).

يوصلها السرفيس إلى باب مقبرة الباشورة. تترجل منه فتركض المرأة الختيارة السمينة بضمة آس إليها. تعرف أنها ستشتري منها كَمًا دائماً، ولذلك تحمل عنها بعض الأغراض.

لا أذكر أن أبي كان يصطحبني في نزهات معه. المرة الوحيدة التي رافقْتُه فيها كانت إلى البحر. إشترى لي وقتها كعكاً طويلاً. طويلاً جداً. أخذت آكله وأنا أجلس على الرمل. ما زلت أذكر المشهد بتفاصيله. قضيب من الكعك الطويل أحمله وأهم بأن أقضم منه قضمة، يمر شاب مسرع. يصطدم بي، ويطيح بالكعكة أرضاً. يغمر الرمل الكعكة. ألمُّها، وأصر على قضمها. أستمتع بقرمشة الكعك المرمّل.

لم يعكِّر صفو ذلك اليوم إلا البحر. كنت لعبة أبي المفضلة. يحملني

ويقذفني في اليمّ وأنا أصرخ. أنا أصرخ، وهو يضحك. أنا أبلع المياه المالحة وهو يقذفني من جديد طالباً مني أن أتعلم العوم على سطح الماء.
مذ ذاك، كرهْت البحر، وحافظت على حبي للكعك.

تستطيع أمي الوصول إلى قبر أبي مغمضة العينين. لكثرة ما زارتْه، قاست الطريق باستداراتها وانحناءاتها وعدد خطواتها من باب المقبرة إلى القبر. تخرج أمي العدة وتبدأ «تعزيل» القبر. كم مرة؟ مرتين أسبوعياً. لست أجزم. أعرف فقط انها أكثرت من هذا الفعل في الفترة الأولى التي تلت موت أبي وتضاءلت زياراتها حتى صارت تزور المقبرة مرة كل أسبوعين.

منذ أسبوعين، اكتشفت أنّ أمي فوتت زيارة قبر أبي نصف الشهرية المعتادة لصالح الفطور التي دعتني إليه أنا وديالا.

جلسَت ديالا قرب أمي وانهمكتا في أحاديث نسائية لم أتابعها منذ بدئها. شردْت أنا كعادتي، وقطعت شرودي بعض الكلمات التي وصلَت مسمعي.
أظن أنها أعجبت بها. وقد بدأتُ أنزعج من تلك المكالمات الخلوية بين الإثنتين. أسأل ديالا: «شو قالتلك الماما؟» تجيبني: «ما شي مهم»، ويصعد الدّم لرأسي.

شو يا إمي؟ جايين بكرة؟

تأخذ ديالا مني الخليوي عنوةً، وتكمل الحديث عني.

غداً ستنقطع أمي عن زيارة القبر غداً أكتشف أنّ أبي مات أخيراً لدى أمي، وأنها انشغلت عنه بإبنه. لكن فلأكن واضحاً: فإنّ اكتشافي هذا لا ينفي حقيقة أنّ أمي أحبّت أباي أكثر بعد موته!

-٢٢-

أضرب حجراً صغيراً برجلي اليمنى، فيندفع أمامي لمسافة قليلة تحت وطء الضربة. هذا يوم ربيعي سأقضيه ماشياً على كورنيش المنارة. الرصيف خالٍ إلا من بعض المارة، وبائع قهوة ساخنة يجرّ عربته ببطء محسوب.

أنظر إلى الأمواج المتلاطمة على الصخور تحت، المطاعم القابعة على الصخر على يميني، والسيارات ورائي في الشارع تمر باتجاهين. ألمح ذلك المنظر الغريب في أفق البحر: المياه تتصاعد إلى الأعلى بشكلٍ لولبي ينتهي كنقطة في الأسفل عند سطح الماء.

في لحظة، أجد نفسي مشيت فوق الماء لأقترب منه. أمشي فوق الماء من دون أن تلمسه قدماي. أقترب منه، وكلما اقتربْتُ، يكبر اللولب المائي أكثر، وألاحظ ما يحمله من باطن البحر أكثر الأسماك الذهبية، أسراب السردين الطائرة، الأسماك الطائرة، ضفادع واسفنج بحري والكثير من العشب الأخضر والطحالب. كل ذلك يطير داخل المياه اللولبية التي تتخذ شكل القمع. كل هذه الأشياء تسبح في مياه تختلف ألوانها بين الأزرق الأخضر أو البني بحسب كمية الرمال المحمولة.

وتحيط النوارس بالقمع المائي، تريد أن تقترب ولا تفعل. ترى كل تلك الطرائد، لكن غريزة الحياة أبقى. دوامة المياه خطرة، أخطر من أن تغطَّ النوارس عليها لتصطاد الأسماك الطائرة.

ثمّ تسحبني قدماي فجأة إلى الوراء بسرعة رهيبة على اثر الجملة التالية.

ولُك إيه. هيدا التنين. بيطلع من وقت للتاني. بعدين مش شايفو أديش زغير وبعيد؟ روّق. بعد بكّير على يوم القيامة.

قال بائع القهوة الذي كان يقف بجانب عربته ينظر إليّ وأنا أنظر إلى البعيد. ربما أوحى له تورّد وجنتيَ بخوف غير صحيح.

أضاف:

وبعدين ما تخاف. نحنا منكفَر الله. بعملّك كباية نيسكافيه؟

أومأتُ إيجاباً.

حليب ولاّ كافي مايت؟

خليها حليب.

أحسنت.

لم أفهم جوابه، ولكنني لم أسأله. فكّرت وأنا أرشف كوب النيسكافيه في مدلول تسمية ما حدث بالتنين. أذكر أنني قرأت في يوم من الأيام عن أنواع التنانين التي لا تحصى في الثقافتين الصينية والروسية: التنين الأزرق القابع في أعماق البحار، تنين النار الصاعد من فوهة البركان، التنين الرقيق بأجنحة الفراشات، إلخ إلخ إلخ..

أفكر بكل الأشياء التي لم أقرأها. أفكر بالأشياء التي قرأتها، بعضها خزّنته وبعضها الآخر سقط من ذاكرتي. على أيّ أساس يمتص عقلي المعلومات أو يُسقطها؟

لما وقفت على رصيف الروشة أنظر إلى التنين وأشرب من كوب النيسكافيه المصنوع من الورق المقوّى، عادت بي الذكرى إلى أول مرة مارست فيها الجنس مدفوع الثمن.

حدث ذلك في مكان قريب من هنا. كنت تلميذاً أشعر بلا جدوى وجودي. كنت تلميذاً مشهوراً بخديَّ الأحمرَيْن، يُضرَب بي المثل بالخجل. ذلك اليوم، ضربتُ عرض الحائط بكل هذه الأحكام. في مكان قريب من هنا قمت بتجربتي الجنسية الأولى. على كورنيش المنارة ليلاً، صادفتها. نادت لي لما لاحظَت أنني أجول في الجوار أسترقُّ النظر نحوها. «يا حلو»، قالت. إقتربْت. لم أسألها كم تريد.

هي سألت. قلت لها: «مش مشكلة». قرصتْ خدي كمن يتقرب تحبباً من ولد صغير، وقالت: «مبلا، مشكلة! باخد عشرين ألف ليرة بس».

في «بورة» قريبة من هنا، مارست الجنس للمرة الأولى. لم يمنعني هزال ثدييها وعمرها، من متابعة الأمر أصلاً، لم تستمر العملية لوقت طويل. حدث الأمر بسرعة كبيرة. لمّا أردت ان أدفع لها، أخرجْت خمساً وعشرين ألف ليرة. أعادت لي الخمسة آلاف. «إتفقنا على عشرين ألف»، قالت.

حسناً! سأكتب رواية جنسية الطابع، غير سعودية الجنسية!

تضحكني الروايات العربية الموسومة بالجنس. أنْ تَسمَ رواية بالجنس، يعني أن تساويها بالفضيحة، أو أن تلصق بها كل العيوب. الغريب أن أكثرية هذه الروايات لا يصف شيئاً تفصيلياً. الثديان يصبحان تفاحتيْن، والفرج يصير صندوق الأسرار!
حتى أفلام البورنو باتت رتيبة. جرّبوا كل شيء، كل الوضعيات وكل النقاط داخل الأعضاء الجنسية. جربوا كل شيء، لم يعودوا يغيّرون إلا الأشخاص والأماكن. كل هذا، والروايات المكتوبة بالعربية التي تحوي جملاً جنسية ما زالت تصف الفرج بصندوق الأسرار. أجزم أن من كتب هذه العبارة لم يمارس الجنس بعد!

لكن هل فعلاً أريد أن أكتب شيئاً أعرف مسبقاً أنه سيبيع ج
هل أريد أن أتحكم أنا بالموضوع أو أن يفرض الموضوع نفسه عليّ لدواعٍ تسويقية؟

لا. لست في مزاج يسمح لي بفعل ذلك الآن. من يدري؟ ربما أفعل ذلك في المستقبل.
أعرف الآن أني سأكتب شيئاً ما عن رحلاتي للمجتمعات السفلية القابعة تحت وجه البراءة المحيط بنا.

أعرف مثلاً أنني -يوماً ما- سأقضي حياتي متنقلاً بين شقة وأخرى في المناطق التي لم أعش فيها يوماً في هذا البلد وتبدو لي غريبة. برج حمود مثلاً. المجتمع الأرمني يجذبني. ربما لأنني لا أعرف عنه كثيراً. يجنح بي الخيال لأرى نفسي في حضرة عجوز أرمنية في كرسي هزاز فيما أنا تحت قدميها، أجلس القرفصاء وأستمع لحكاياتها التي لا تنتهي عن بطل أرمني ما ذبحه الأتراك.

وستخبرني العجوز الأرمنية عن الرمّان وهي تقدم لي بعض حبوبه. تقول لي أن كوز الرمان يحوي ٣٦٥ حبة. تقول لي أن الرمان أنقذ العائلات الأرمنية من الموت المحتم في زمن الأتراك. في الكهوف جلسوا. كلٌّ بيده رمانة. حبة واحدة كل يوم. حبة تبعد الموت لعام كامل. هل هذا صحيح؟ الأرجح لا. لكنّ قصة الرمانة تبقى، شأنها

شأن كل القصص، شأنها كل المشاهد التي رأيتها والتي لست حتى واثقاً من حدوثها فعلياً.

نهاية ذلك النهار، دخلْتُ لأستحم. تركْت الباب مفتوحاً. عبَّأت البانيو بالماء على غير عادة وأخذت أشبك أصابع كفي ببعضهما مع تغميسها بالماء قليلاً والضغط لأنتجَ تنين ماء صغير على هواي. عدت طفلاً لا يخرج من حمامه الأسبوعي حتّى تظهر تجاعيد أصابعه.

تدخل ديالا لتأخذ غرضاً من الحمام، وتتأفف من فتحي لستارة البانيو، تغلقها بعنف.

يا ألله دايماً بقلّك سكرها!! ما بحب إطلّع!

أجذب الستارة وأفتحها مرة أخرى.

تطلعي.. تنين المي!

ولك هيدا تنين مي؟ هيدي ما فيك تسميها نافورة. بعدين خلَص. بدي الحمام. معك خمس دقايق.

أحدس من «نرفزتها» أنها في دورتها الشهرية. أنا أرى الدم أيضاً، وأستطيع أن أفهمها.

النظرية العامة تقول أنني أحب إحداهن، وأنّ إحداهنّ هذه هي ديالا. خطأ. أنا أكره الجميع ما عدا ديالا، وأفخر بذلك.

-٢٣-

تركَت كمبيوترها المحمول في غرفة الفندق. إضطررْتُ أن أستخدمه بعد أن فرغَت بطارية كمبيوتري، إذ أنني لم أجد قابس الكهرباء الخاص به. استخدمْتُ كمبيوترها واكتشفت أنها سرقَتْ كل معلوماتها من موقع على الانترنت. كل شيء. ملصقات الأفلام المئة الأجمل مدرجة هنا، على هذا الموقع، بالتوالي. تلك التي تكلّمت عنها أو التي لم يتسن لي المكان لذكرها هنا.

نظرْت إلى اللائحة وأحسسْت بتفاهتي. هل أنا فعلاً صعب المنال لهذه الدرجة؟ للدرجة التي تجعل ديالا تصطنع المعرفة لتجاري طوفان أحاديثي عن الكتب والروايات؟ لو تعلم أني لا أعلم شيئاً! أنا أقنع نفسي أنني أعرف، أنني مختلف، أنني أنظر إلى الشارع من فوق. لو تعلم كل هذا لما لجأَتْ إلى مواجهة استعراضاتي باستعراض ملصقاتها.

صعد الدم إلى رأسي، كما يحصل معي دائماً لمّا أواجه أزمة من أزماتي السخيفة التي تتضخم أمام ناظريَّ كلما فكرت في تفاصيلها. لا بأس، فبعد قليل سأفرغ دمَ رأسي في كرسيّ الحمام كعادتي. قلت أنني سأواجهها بمعرفتي بكل المشاهد الكاذبة تلك. عزمْت على فعلتي هذه وأنا أنظر إلى مرآة الحمام. لاحظْت، وأنا أرى مثيلي في المرآة، أنّ حاجبيَّ يزدادان تغضنا!

لكنني لن أنفِّذ أياً من تهديداتي التي لفَّت خاطري. عرفت وسأتجاهل، كالعادة. أنا الهارب الدائم من المعارك، لن أفلح في

خوض معركة شخصية من هذا النوع ستؤدي إلى فراق أنا لا أريده.
أنا الذي أنزلق تدريجياً إلى حالة اللامبالاة الخَدَريّة اللذيذة، أحتاج على الأقل لشخصٍ واحد حولي. شخص واحد فقط ليساعدني على إبقاء شيء من توازني النفسي النادر

ديالا تصبح شخصاً. شخص! تصوّروا! كل هذه الآلاف من الكلمات التي يتمحور أكثرها حولها لتتحول في النهاية إلى محض «شخص»!

لن أواجِه. سأبقي على «الستاتيكو» العاطفي هذا. سأقول أنّ كل ما حدث هو محض تفصيل بسيط. كذبة بيضاء. الأهم أنّ ديالا ستبقى موجودة حولي.

هكذا سأترك الصفحة مفتوحة على الموقع تماماً كما كانت. ستعود ولن تعرف أنني عرفت. ولن نمر في المرحلة السخيفة التي ننظر فيها إلى بعضنا بصمت ونتظاهر أننا لا نعرف، وتتصنع فيها أنها لم تعرف أنني عرفت.

«إنها مرحلة الموزاريلا! »، قال صديق صديقي يوماً في معرض تحليله للمراحل الأخيرة لعلاقة عاطفية ما. قال صديق صديقي: «لا تقضم قطعة البيتزا وهي ساخنة. ستبقى تجاهد وأنت تحاول أن تقطع خيوط الجبنة الساخنة بأسنانك، ولن تفلح. إنتظر الموزاريلا لتبرد! أقضمْها وهي باردة!»

لا! معاذ الله! (الله؟)

ما علينا.

من تكلَّم عن الموازاريلا؟ أنا؟ معاذ الله. (مجددا: الله؟)

لا. لا. لم تصل الأمور بعد إلى هذا النحو. هدِّؤوا من روعكم يا أصحابي.

المطر ينهمر خارج الغرفة في هذا المساء الربيعي! الناس يركضون. يختبئون من الهطول المفاجئ لهذا المطر. هي ليلة ممطرة سأقضيها برفقة شارلي شابلن.

منذ فترة وأنا أعشق شابلن. كنت، بادئ الأمر، أكتفي بمشاهدة المقتطفات المضحكة من أفلام شابلن على التلفزيون. بعد ذلك آخذ أقرأ عنه أكثر. (طوبى للإنترنت! يا منقذ الجهّال!). وثمّ أحظى بفيلمين من أفلامه كاملتَيْن لأشاهدهما. جيد. جيد.

هذه ليلة ممطرة، أنظر من النافذة. إنها تمطر فقط بلا رعد أو برق. مطر خفيف، ثمّ أكثف فأشد، فعودة إلى مطر خفيف. الشارع فارغ إلا من بعض السيارات التي تمر. القطط التي كانت تملأ الشارع اختفت. إلى أين، لا أعرف.

وبعد كل ذلك، أعزم على الخروج! أنا الذي لم يخرج منذ أيام، مصمم على التنزه إلى محل الديفيديات تحت وابل المطر! أين المنطق في قراراتي؟ لا أعرف، ولم أعد أسائل نفسي عن منطقية القرارات التي أتّخذها.

عندما دخلْتُ محل الديفيديات مبللاً، نظر إليّ الفتى من وراء مكتبه بدهشة. وازدادَتْ دهشته حين أضَفت:

عندك ديفيديز لشارلي شابلن.

«خليني فتّش!»، قال ونهض ناحية الديفيديات المعروضة.

«أحسن لك تلاقي شي!»، فكرت.

-٢٤-

ماريا ستذهب لثلاثة أشهر إلى سريلنكا، ثم تعاود المجيء. مات قريب لها. دائماً يموت لها أقرباء، ودائماً تذهب إلى سريلنكا للعزاء. بعض الأوقات، يكون الخبر صحيحاً، وفي أوقات أخرى تكون حجة للذهاب وحل بعض المشاكل العائلية. في كل الأحوال، توافق أمي على سفرها. تعرف، ضمنياً ولسبب ما غير مفهوم، أنها عائدة. ستسجِّل لها حلقات المسلسل المصري الذي تتابعه وستفوت مشاهدتها في فترة غيابها. ماريا تحب الأفلام والمسلسلات العربية. تعرف الحاج متولي وزهرة وعلي في ليالي الحلمية، ورأفت الهجّان. كما أنها واكبت موجة المسلسلات المكسيكية وهي هنا. تعشق ماريا مرسيدس وتدندن أغنية الجينريك من فترة لأخرى في المطبخ. ماريا تبني بيتاً في سريلنكا. زوجها سكير، وابنها شاب على وشك أن يصبح شرطياً. مهنة لا تريدها له. تحاول إقناعه بالعدول عن فكرته في كل مرة تزور فيها سريلنكا ولا تفلح، ودائماً تعود إلى هنا.

تعرف ماريا جميع الدكاكين في حينا. تعلّمت من أمي كيف تنتقي الخضار الطازجة، وكيف تفاصل بائع الأقمشة. دائماً تشتري أقمشة. تشتري وتتضخم شنطة سفرها. أمي، في كل مرة، تتحدث مع أحد في المطار حتى لا تدفع بدلاً لوزن شنطتها الزائد، وفي كل مرة تنجح.

تنتظرني ماريا دائماً لأكتب لها عنواني المرسَل منه والمرسَل إليه على رسائلها البريدية. لا أعرف لماذا لا تطلب ذلك من أمي رغم أنها تستطيع فعل ذلك. أظن أنها اعتادت أن تطلب مني فعل ذلك مذ كنت أعيش معها في البيت نفسه، قبل أن أستقلّ بنفسي. أحياناً تتصل بي، وأحياناً، لما تكلمني أمي، تطلب منها أن تتحدث معي. تقول لي بلهجتها الهجينة: «في مكتوب بدو address». أضحك دائماً قائلاً: «أكيد بدو آدرس.؟ Sure بركي ما بدو». كانت «تصفن» لمّا كنت أمزح معها هكذا في المرات الأولى وتجيب بعد لحظات صمت وكأنها تعاود التحقق من مضمون ما قالته: «إيه! بركي ما بدو؟»، ثم تنتبه وتضحك لنكتتي.

أنا لا أملك إلا أن أضحك. وفي كل مرة، أمرّ لأكتب لها «الآدرس»، وتحظى أمي بزيارة مني.

في مرّة، خطرت لي فكرة أنّ أمي تدفعها للاتصال بي لما تطول فترة ابتعادي عنهما، لتراني. تخيلتُها تجلس مع ماريا في اجتماع بالغ الأهمية فتسألها السؤال الأهم: «شو ماريا؟ ما في مكتوب بدو آدرس؟ لازم يكون في آدرس».

ماريا ستذهب إلى سريلنكا. أظنّ أنها لن تعود هذه المرة. لا أعرف لمَ ينتابني هذا الإحساس. طلبت مني ماما أن أوصلهما إلى

المطار، وديالا أصرّت أن تأتي معنا. لم أملك أن أرفض طلبها. ماريا لفّت لي سندويشات كثيرة وأنا صغير ثم وأنا مراهق، واعتنت بي كثيراً. لا أستطيع رفض أي شيء يمتُّ لها بصلة.

في قاعة المغادرة بالمطار، كنت أتكلّم مع ديالا، وأمي كانت تبكي لفراق ماريا ذات كمية الدمع التي بكتها لدى مغادرتها السابقة. غريب. ألم تعتاد سفرها بعد؟ كيف تخرِج هذه الكمية المحسوبة من الدمع من مقلتيْها؟

هبطت يدٌ على كتفي. التفت فوجدت هذا المستعرِض مرة أخرى. كأنه يأبى إلا أن يظهر لي في أكثر اللحظات حسماً. لكنّه لو يكن ذاك الذي التقيْتُه يوماً في أروقة المونوبري. بدا أكثر طبيعية وأكثر ميلاً للابتسام. تخطّى برودته المحبطة تلك. اصطنعْت التفاجؤ السارّ:

هلال! شو عم تعمل هون؟

سألتُه عمًّا إذا كان وجد عملا. أجاب بالنفي ثم استطرد.

بس عم إكتب رواية.

والله؟ عن شو؟

ضحك وأجاب.

عن الخرى.

صمت ثم أردف.

عن كل الخرى اللي حوالينا.

ابتسمت. أضاف.

صارت خالصة تقريباً.

«بس الخرى ما بيخلص»، فكرت من دون أن أعلن له خاطري هذا.

أخبرني عن الشخوص القابعة في رأسه. كيف صارت توقظه منتصف الليل ليدوّن مشهداً خطر له. كيف صار النوم يهرب من عينيه. يندسّ في السرير لينام فيتملكه الأرق وبدل أن ينام، ينظر إلى سقف الغرفة المظلم لساعتين أو ثلاثة، وتخرج الشخصيات لتلعب أمام ناظريه، على سقف الغرفة.

كأنني كنت أرى بعضاً من نفسي أمامي. لكن، هل استفاض معي وحدَّثني في مثل تلك التفاصيل حقاً؟ أم أن خيالي المتوعّك صنع مشاهد لقاءاتي معه؟

ابتسمْت له. والحق يُقال، كانت المرة الأولى التي لا أصطنع فيها ابتسامة اجتماعية معه، كنت أبتسم فيما ماريا تجر شنطتها الضخمة أمامها ترافق شخصاً يعمل في المطار تعرفه أمي. أمي كانت ما تزال تبكي، لكن على كتف ديالا هذه المرة.

«وقف هلال أمام محل تصوير لم تصل له بعد جميع وسائل التكنولوجيا. بدا ذلك واضحاً من الديكور الفقير في الواجهة والملاحظة التي أُلصقَت عليها:
«يستغرق تظهير الصور ثلاثة أيام».
ثلاثة أيام؟ هذا بطء غير معهود، فكَّر

لكن كل ذلك لم يلفت نظره. لم يرَهُ حتى. كان يهم بربط شريط حذائه الرسمي عندما لفتته صورة لشاب معلّقة في الواجهة. الشاب يشبهه إلى حدٍّ كبير. للحظة ظنّ أنها صورته، ولولا أنه يعرف أنه لم يتصوَّر أبدا في هذا المحل لما عاد ظنه شكاً بل كان أمسى حقيقةً مؤكدةً.

في قصص تافهة، يُتَّخذ من حادثة كهذه منطلقاً لاكتشاف سيقلب حياة الشخصية رأساً على عقب. خطأ. لن يحصل ذلك مع شخصيتنا.

سيدردش هلال مع البائع العجوز المنسي أسفل الدرج الموصل إلى الدكان. سيقتل بضعَ دقائق معه قبل أن يودّعه.
ثم لا. أخطأتم الحدس مرة أخرى، لن يموت العجوز قريباً، والمحل سيبقى مفتوحاً لوقتٍ طويل. وماذا عن صاحب الصورة؟ لن يعرف

هلال عنه شيئاً. العجوز لا يمتلك أرشيفاً أو ملفّات ولم يكتب اسم صاحب الصورة على ظهرها. وأنا شخصياً لن أحدثكم عن صاحب الصورة فذلك يقع في أدنى اهتماماتي.

كان هذا فقط تفصيلاً سخيفاً من يومٍ ستمضيه شخصيتنا متمشّيةً في الشوارع.

الملل قاتل، وهلال يحتاج لحرب أخرى ليتحمّس من جديد.
سينبئه خليويه برسالة نصّيّة دعائية معنونة بـ «مبروك» تقول الآتي:
«مبروك. بمناسبة الأعياد، ربحْتَ معنا ألبوم صور الحرب الأهلية.
إتصل على الرقم (...)».

كأنّ الخليويّ يقرأ رغبته فيتواصل معه على الأثير نفسه. حصل ذلك فعلاً مع شخصيتي. أنا لا أختلق ذلك لأبني الشخصية. أنا أضيف شيئاً من الحقيقة على شخصيتي المختَلَقة.

إذاً، ينظر هلال للوهلة الأولى في حروف الرسالة. يفكر أن سياسة الأيام هذه تخيّب أمله. هذا زمن الحروب المثلّجة المضبوطة.
مضى زمن الانفلات الفوضوي. هذا زمن الإنفلات المضبوط.
وبزر واحد يكاد يمحو الرسالة.

لكن مهلاً. تحمّلوني مرة أخرى. لن يمحوَ صاحبنا الرسالة النصية إياها. سيدعها في ذاكرة خليويه. قرَّر أنها توفَر له موضوعاً جديداً يتحدّث فيه مع أصدقائه. إذ تكاد مواضيع أحاديثه تعاني من الرتابة والتكرار.

هذا ما سيحدث. لن يتكلّم عن مكان التصوير (لا. لم يكن عابقاً بروائح التاريخ كما يجنح بعض الكتاب للقول عند الحديث عن أماكن قديمة لم تفقد بكارتها. كان مكاناً تـَشْتَم فيه الرطوبة من الدرجة الأولى.). سيتحدّث مع رفاقه طوال الجلسة عن الرسالة النصية إياها.

وبدوره، سيبعث له صديقه برسالة نصية أخرى تحوي النكتة الأخيرة لأبي العبد البيروتي».

أنظر إلى النّصّ أعلاه، ولا أشعر تجاهه بأيِّ شيء. تقليد سخيف لبعض ما كتبه كونديرا. عليَّ أن أتخلص من سطوة ما قرأته. عليّ فعل ذلك سريعاً!

أنظر إلى النص أعلاه، وأعجز عن المضيّ بكتابة تكملة ما له. أمحوه من ذاكرة الكمبيوتر، أحتفظ به في ذاكرتي.

كان ما سبق فكرة مجنونة أخرى عن تخيّل حياة صديق غير حميم، بدأَتْ بظني أنه قد يكون كتب روايةً عني. «بلّشْت فيها بعد ما شفتكن بالمونوبري»، قال وقتها في المطار. (هل قال ذلك فعلاً؟) هكذا استحوذَت الفكرة على دماغي. استعنت بخيالي لأنتقم. لم أتورّط بعراك بالأيدي. إنتقمت بنص لن يقرأه أحد! أنا فعلاً مجنون والفكرة المجنونة أتت من شكٍ سخيف ولا معنى له. كتبتُ النص لأقرأه وحيداً؟ كتبت النص لأرتاح؟ إنّ هذا لهو شيءٌ جنوني!

مضت أشهر ولم يتغير شيءً البتة. هذه ليلة رأس السنة الجديدة. بعد قليل، أطأ عاماً آخر في من عمري. ياه! غريب كيف «ضاينْتُ» في دلو الخراء المُدمّى الكبير هذا المسمّى «حياة»، فكرْت وأنا أمشي في شارع بعيد عن الفندق، قريباً من حدود بيروت. (إنتقوا أنتم الجهة الجغرافية. من الصعب الإفصاح عن الجهة لأنه سيُكسب المقطع التالي بعداً سياسياً ضيقاً).

كنتُ أسبح في الشوارع المعتمة المضاءة، ورأيت ذلك المبنى الذي لا يختلف كثيراً عن أي مبنى حوله، غير أني انجذبت إليه لسبب غير مفهوم. صعدتُ الطوابق حتى وصلت إلى باب سطح البناية. دفعتُ الباب الحديدي المهترئ بقدمي ووجدْت نفسي على السطح، فيٍ غابة الهوائيات والصحون اللاقطة. جلستُ على حجر متروك تصلّب في مكانه بفعل بعض الجفصين الذي تُرِكَ عند قاعدته. هبَّ سرب من العصافير المدينيًّ طائرا من زاويةٍ ما -كان يعشش فيها- حولي. أخذتُ أنظر إلى أضواء المدينة، وسمعْت موسيقى منبعثة من بعض البيوت وشرفات مُضاءة وأصوات ضحك وتصفيق.

فكَّرتُ أنني أستطيع أن أخلق مشهداً ملحميًّا ابتداءً من جورب معلّق على حبل غسيل.

لا سحرة ولا غجر ولا بطريرك ولا جنرالات ولا شيء، ولا حتى مدينة متخيَّلة أو قرن يمر على العائلة الموصوفة. لا شيء من كل هذا.

فقط جوارب، والأرجح أنها مخططة و.. مبللة.

الزمن: بعد ظهر يومٍ ما.

المكان: على أسطح البنايات وشرفات الشقق.

كل الأمهات، العاملات منهن وغير العاملات، يخرجن ليعلّقن جوارب كل من في منازلهن. مخططة ومبللة. تخيلوا أسطحا وشرفات مزدحمة بجوارب من كل الأنواع. الرياضي منها والرسمي. الجوارب ذات الأصابع الطويلة أو الجوارب النسائية. كلها معلقة على حدائد ستصدأ بعد عام. ينتهين من عملية النشر، فيدخلْنَ إلى بيوتهن ويفسحْنَ المجال لأزواجهِن أو أولادهن المراهقين لتدخين سيجارة ما بعد الأكل في الشرفات. ينظر كل فتى أو رجل إلى الآخر. يومئ كل منهم للآخر بأن: «مرحبا». إبتسامات اجتماعية حفظها الجميع لكن ما زالوا يرتكبونها. خمس دقائق، ثم تُرْمَى السجائر ناحية الرصيف المبلل في الأسفل، في حركة جماعيّة من الرجال قلَّ نظيرها. تسقط السجائر معاً في المياه الراكدة، فتنطفئ. ينبعث منها دخان قليل وأخير، فيما يدخل الرجال إلى بيوتهم من جديد.

فجأة، بعد دقائق خمس، تنسدل من الشرفات حبال مصنوعة من أقمشة مربوطة ببعضها. فتيات العائلات يهربْنَ جميعاً على حبال. فتيانهن ينتظرون في الأسفل مع دراجات هوائية أو نارية (بحسب قدرتهم الشرائية). كلهم يرتكبون الهروب الكبير. الأرجح أنّ الفتيان غرباء من خارج الحي. ففي ملحمتنا هذه، لا يرتكب المنكر إلا الغرباء.

تنطلق الدراجات جماعات خارج الحي، ثم تسقط الجوارب عن الحدائد، فجأة. يظهر صف من أشخاص في الشارع، فجأة. يمشون سويةً، فجأة. قدم بجانب قدم. كتف يلمس كتفاً. الأشخاص يلبسون البيجامات القطنية. لم ألحظ إن كانوا حفاةً أم لا. لكن المنطق يقول أن من ينزل بالبيجاما إلى الشارع عليه أن يكون حافياً!

في بعض الأفلام، يجوب السكارى شوارع المدينة مترنحين. يدعسون في برك المياه الآسنة. في الأسفل الآن، صف يتقدم بحواجب معقودة ووجوه متجهمة. لا سكر ولا ترنح ولا شيء من هذا القبيل.

المتغضنون، عاقدو الحواجب، يمشون معاً، كلٌّ يحمل عصا بايسبول. يمشون ويهرب من أمامهم مجموعة من الجرذان الضخمة إلى

فتحة مجرور قريبة. الجرذان الضخمة السوداء تهرب من بيجامات قطنية الملمس. يا للمفارقة. لكنها الملحمة. في الملحمة كل شيء معقول.

إلى أين يمشون؟ لا أعرف. أعرف فقط أن وجهتهم واحدة، وعلى الأرجح بعيدة، غير منظورة بالعين.

أعتقد أنهم سيفتعلون شغباً في مكان ما. يلحقون بالفتيات الهاربات؟ أو من يدري؟ ربما هم ذاهبون لتنفيذ عملية استشهادية!

خلفهم أرى الخطوط الحمراء في السماء. يبدو أنّ البعض يطلق الرصاص ابتهاجاً.
«لقد دحرنا الغزاة»، يقول دايسكي من تلفزيون الشقة المقابِل الذي يُظهِر لوغو تلفزيون لبنان الأزرق.

إنه يوم الدينونة! وحدي رأيتُه.

صديقي في السويد عاد فاتصل بي. يريد أن يطمئن على صحتي. «خرى»، أجبتُه. «صحتي خرى». تنهد على الهاتف وأخبرني بفكرته. قال أنه بات عضواً في مشروع لدراسة حالات القولون العصبي. فكَّر بي على الفور. سيجعلني أنضمّ للبرنامج. قال أن العملية الجراحية هي الملجأ الأخير قبلها، عليهم أن يجربوا أنواعاً كثيرة من العلاجات والعقاقير. ربما يلجأوون لـ «الكورتيزون»، وربما لا. وقد يدعمون أدويتهم ببعض حبات الحديد (التي توقفتُ عن أخذها). وربما يراقبون نوعية الأكل الذي آكله. «والمقابل؟»، سألتُه. نتائج الفحوصات ملك المشروع. صمت وقال، حالتك ملكٌ للمشروع حتى تُشْفى أو نفقد الأمل. إستطرد أنّ حالتي لن تسوء عما هي الآن. فقط على المدى البعيد، إن لم أشفى، سأحظى بسرطان القولون لينهي حياتي. «بعرف. قريت عن الموضوع»، قلت.

كذتُ أن أسأله: «فأر تجارب يعني؟»، ثم تراجعْتُ. فأر تجارب أو فراشة ميتة أو ذبابة ذات دورة حياة قصيرة أو انسان يدعي المعرفة، ما الفرق؟ فعليًّا، ماالفرق؟

حسناً، إنه عام جديد. فلنبت الموضوع يا أصحاب، ولنعد إلى موضوعنا الأساس.



سأكتب رواية. سأكتب بادئ الأمر نصاً ثم أرميه. أضمَنه كل شيء ولا شيء. هل أكتب عن شيء ذي قيمة فعلاً؟ الأرجح لا. لكن لا يهم. المهم أنني تخلصت من كل ما كتبته. تجاوزته. الكتابة مداواة. الكتابة فعل اتزان، أقنع نفسي.

تجاوزت قلق شاب رتيب من خوضه لعلاقة عاطفية تتحوّل تدريجياً إلى الجدّيّة. تخطيْتُ الآن توجّسَّ فتىً من تجسد صورة الأم في حبيبته. تخلُّصت من ذكريات فتى مع والده الميت. محوْتُ قصصاً عجائزية سمعت بعضها واختلقْتُ بعضها الآخر لم تعد تعنيني لعنة المدينة بعد الآن. أصلاً فكرة اللعنة هذه سببها عاطفة مريضة لمكانٍ أدوس طرقاته يومياً. هذا عته! هناك الكثير من المدن الأجمل التي لم أتعرَّف عليها بعد. هذه سطوة المكان المعروف السهلة. أرغب بالكتابة عن أمكنة لم أدسْها بعد. فسطوة الأمكنة المتخيلة أو التي قرأْتُ عنها هي الصعب الذي أرغبه. سأتمنع عن زيارتها حتى أنتهي من الكتابة عنها. بالأحرى حتى أنشر شيئاً عنها. جميل أن أكون قد أصبْت في كتابتي عنها، والأجمل أن أكون قد شوَّهْتُّها على طريقتي الخاصة. الكتابة وجهة نظر. الكتابة تشويه، أستمر باقناع نفسي.

لكن هل كتبت شيئاً مهماً حقًّا؟ الأرجح لا. لكن لا يهم. لا يهم على الإطلاق. لقد أزحْت الحمل عن صدري، وتشبّع الورق المكتوب

أمامي بصورٍ محفوظة في قشرة دماغي المضبوب. أستطيع الآن أن أنفذ لما تحت القشرة. أن أرمي نخاعي المضبوب على الطاولة كنيكولاس كايج. ولن أكتفي بهذا. سآتي بملقطين يستخدمان في التشريح وآخذ أمثّل بنخاعي المفروط، ثم أعيده إلى جمجمتي وأغلق عليه، وأكتب رواية أخرى، وإن لم تكتمل. سأنهيها يوماً ما، أعرف ذلك حق المعرفة.

أعرف أني بدأتُ أشعر بالوحدة من جديد. حتى مهرّج خيالي انفض عني واختفى. الآن، لو كانت ديالا معي لكانت أمسكَتْ مرفقي. لكانت صاحبتني وأنا مستلقٍ على السرير النقّال المدفوع في أروقة المستشفى. أنظر إلى وجهها وأرى «فوبلافون» السقف وراءها. سشتدُّ تجاعيدها. تبدو أنَّها ذرَفْت دموعاً وتجاهد في إخفاءها. أتريد فعلاً أن تقوم بذلك؟ سيقول وجهها. سأبتسم فقط. إنها لا تفهم لِمَ أقوم بذلك. أنا أسعى للحفاظ على حقي بأن أضيع لدى اتخاذ أي قرار. أسعى للحفاظ على غموض أحاسيسي.

أسوأ ما يمكن أن يحدث لك في بقية حياتك هو اكتشافك أنك فوتَّ فرصة ما، كانت ستغيّر حياتك، وأن تقضي كل حياتك تندب تلك اللحظة. قاتلة!

أنا أفعل ذلك من أجلها. كي لا يبقى شعوري تجاهها واضحاً. أريد استعادة ذلك الغموض. لا أريد لحمرة وجنتيّ أن تعلن لي أني

أصبحت أعتادها أكثر، وأحبها أقل. لا أريد من دمي الفائض أن يشرح لي أحاسيسي ويسيَرها. أريد أن أستلذّ بنعمة الجهل من جديد. أن أجهل مدلول أحاسيسي. أن أخطئ وأكتئب. أن أرى نفسي في خضم مشكلة كبرى. أجد نفسي ضحية قرار خاطئ. أن أقدم على شيء من غير أن أكون متأكداً من صواب قراري سلفاً.

أبتسَم لها، ويُفتح باب غرفة العمليات أمامي. أغمض عينيَّ قبل أن أدخل. أبعد بتفكيري عنها. آخذ أفكر بالرواية التي عليَّ أن أبدأ بكتابتها بعد خروجي من هنا متمتعاً بنعمة الجهل. متمتعاً بفقدان أحاسيسي المؤكّدة. سأكتب رواية عن الكبت، عن الحب، عن حربٍ تدور داخل غرفنا الموصَدة، عن القرف المضبوط، عن الهوس والهستيريا، عن دمنا زنخ الرائحة الذي ما زال يجري في عروقنا وينتظر لحظة النافورة الكبرى. أين نوافير الدم يا كبراء الشاشة؟ لقد سئمْت الانتظار. هل أهاتف لكم تارانتينو يا جبناء؟ أريد أن أراكم تتقاتلون لأشتمكم أكثر.

يا جبناء! أريد أن أتعارك مع أصدقائي القلّة وأخسرهم واحداً تلو الآخر.
يا جبناء! أريد أن أتوقف عن الحديث مع أمي بسبب موقف سياسي عنصري.
يا جبناء! أريد أن افعل ذلك وأنتم لا تنفكون تجعلونني أنتظر.

كرّهتموني الحياد. كرّهتموني هذا الانتظار القاتل. هذا اللا فعل مقيت. أحتاج أن أفصح قليلاً عن نفسي المنهكة المضبوطة. أن أكونَ أنا بلا ضوابط.

سأكتب عن ذلك كله ثم أحاول أن أجدَ خطاً يصل كل كتاباتي. سأبدأ بلا قصة. ثم أفكر في واحدة، وأنتهي إلى شكل آخر. سأنهي جزءاً وأنظر إلى عدد الكلمات يزداد. ٢٠٠٠، ٤٠٠٠، ١٠٠٠٠، ١٢٠٠٠ سأمحو الكثير بعد المراجعة وأضيف القليل. سأبتسم لما أنهي كل ذلك وأعيش لحظة سطوة النفس على النفس.

والأهم، أنني سأكتب عن ديالا.

أنا في غرفة العمليات، أنظر إلى الأعلى ثم أغرق في نوم مخدَّر. أرى ذلك الطفل المحمول على كتفي. رأسه يكبر وأنوء أنا تحت ثقله. أنا أمشي ورأس الطفل يكبر حتى يفقد تناسقه مع جسده. يبدو لي للحظة مصاباً بعاهة ما. لكنه يملك وجهاً جميلاً. جميل بحق لا لشفقة. هو يضحك رغم تغضن حاجبيه. لا تسألوني كيف. أرى ذلك كله. ثم يستدعي حلمي فانتازمي المريض. لا. ليس المريض. أقصد المتوعّك. يستدعيه فتمطر علينا دماء. يهطل القاني من لا مكان وأراها واقفة هناك. تنتظر أحداً. أنظر إليها. تبتسم.

لكن هل سيحصل هذا كله أم أنني أتخيله؟ لم أعد أعرف. هل خيالي هو حياتي المرغوبة؟

في أكثر الروايات شهرة، تحصل معظم شخصياتها على مصائر سوداء. إن هذا ما يضفي عليها بعضاً من الجاذبية ويخلّدها. والشخصية إن لم تصل إلى مصيرها الأسود، ستفقد شيئاً وفي أحسن الأحوال تنتظر شيئاً ما، حدثاً كان أم شخصاً.
أنا ماذا أو من أنتظر؟
دعوني أظنّ -بل أجزم- أن ديالا موجودة الآن في غرفة الفندق المظلمة. تذرف دمعة أو دمعتين، أو أكثر وهي متربعة في السرير. تجلس القرفصاء وتخبئ وجهها بكفيها ثم تنظر إلى زاوية الغرفة حيث تومض شاشة الدي في دي بوقت رقمي أخضر، يظهر للحظة، ثم يخفت. يظهر للحظة، ثم يخفت. AM ‏ :٢. إظلام. AM ‏ :٢. إظلام. AM ١ ٢:٠. إظلام.

تستمر الومضات الخضراء. تعدّل ديالا من وضعية جلوسها ثم تعود لتخبئة وجهها بكفَّيها، ويسقط، وراءها على الحائط، أفيش لم تُحكم لصقه.
طيب. يبدو أنها تخلـَّت عني، أو أنا تخلَّيْتُ عنها.
وماما؟ لمَ لم تظهر من جديد في حلم اليقظة هذا؟ هل ماتت أم قتلتُها؟

لا يهم. كلاهما غابتا عني، وكذلك ستفعل حمرة خدًّي قريبا. ستهجر محيّاي.

يبقى دمي. لا أستطيع أن أتخلّى عنه، أكان داخل شراييني أم في كرسي الحمام. يجب أن أرى قليلاً من الدم يومياً. إن لم أتفرّس به في كرسيّ المرحاض، سأراه على الشاشة أو أقرأ عنه في ثنايا رواية أجنبية غريبة المضمون. أحتاج أن أراه يوميًّا لأؤكِّدَ خروجي من قوقعتي التحنانيّة.

سأطلب ذلك من الدكتور. سأقول له: «دكتور. لا أريد التخلص من دمي الفائض كله. أريد فقط أن أتحكَّم به. أسمح لك فقط بأن تأخذ حمرة خديَّ وبعضاً (فقط بعضاً) من دمي الزائد. لا أعرف كيف ستفعل ذلك. تلك مشكلتك. تصرَّف!»

تخلُّصت من كل ما يؤرقني، أو هكذا يخيَّل لي. أستطيع الآن أن أبدأ بكتابة روايتي. (هل سأتخلَّص من خيالي وشطحاتي الكرتونية قريباً؟ أجبني يا الله فأتخلى عن علامة الاستفهام الملحقة باسمك!)

شابلن المتوحَد حمل عصاه وخرج من عزلته. عاد من قبره الذي نبِشَ بعد موته.

«خلص!»، صار لزاماً عليّ أن أبدأ بكتابة روايتي. من يدري؟ قد تنفجر قارورة الغاز، في المطبخ المجانِب بعد ثوانٍ عدّة.

أسرعي! أفيضي ما بداخلِكِ أيتها الخلايا الرماديّة.

Hello?

أيتها الخلايا الرمادية، أنا أنتظر.

.Knock. Knock

أيتها الخلايا الرمادية؟

Anybody there?

نيسان ٢٠٠٨

شكر

شكراً لجهاد «أول من قرأ الرواية»، للأحمدين على تشجيعهما ومساعدتهما لنشرها، لأمل ورشا وجهينة ومايسة وسحر وكافة الأصدقاء الذين قرأوها أو ساهموا باقتراحاتهم ونصائحهم.



أسباب وجيهه للفرح	شعر	عمر مصطفي
النبي الافريقي	نصوص	مينا جرجس
روجرز	رواية	أحمد ناجي
عن الهمس الذي يشيخ	شعر	سعيد ابو طالب
النفس والجنس والجريمة	دراسة	خليل فاضل
سيد الخواتم الجزء الاول	رواية مترجمة	ترجمة:عمرو خيري
خروج	مجموعة قصصية	سلمي صلاح
ديل حصان	نصوص	بسمه عبد السلام
سيرة الاراجوز	شعر	خالد عبد القادر
خبز أسود	مجموعة قصصية	عمرو العادلي
عضو عامل	رواية	ماهر عبد الرحمن
فاتني ان اكون ملاكاً	نصوص	زهره محمد
3-2-1	قص قصيره	مليحه مسلماني
مترو	رواية مصورة	مجدي الشافعي
بريق لا يحتمل	مجموعة قصصية	سمر نور
بين ذراعي قمر	شعر	فاطمة الزهراء بنيس
مريم والحظ السعيد	قصص قصيره	مريم الساعدي

بكره مش مهم الساعه كام	شعر	هيثم دبور
الي العزيزة الغالية	قصص	عبير عبد الغفور
اقراص المسكن	شعر+ رسوم	هاني سامي
غرفة السيد بحر	رواية	كريم سامي
جردل وصابون سايل	مجموعة قصصية	رضوي أسامة
أسفار الزمن	نصوص	منال الشيخ
تسلل	رواية	جمال عمر
جوابات للسما	حواديت بالعامية	عمرو العادلي
تلة الذئب	رواية	سامي سعد
شرور عادية	شعر	أسامة الحداد
ما رواه النوم	رواية	هلال شومان
كليك شمال	شعر	عادل سلامة
ليسبو	رواية	أحمد وائل
عفاريت الراديو	مجموعة قصصية	محمد خير
انسان ما قبل الديمقراطية	رواية	اسلام محمود

يصدر قريباً

غواية الشر الجميل	مجموعة قصصية	أحمد ابو خنيجر
جرادة بارتي	مسرحية	شادى الرفاعى

WE PUBLISHED IN ENGLISH ALSO:

Velo	novel	Amr Khaled
The poisen Tree	articles	Marwa Rakha
An anthology of loss and hope	poems	Omar Abd Elbary
29	novel	Yasmine Adel
The years of silence	novel	Marwa Ayad

طلال [illegible]ومان

مواليد بيروت 198? حائز على ماجستير

[illegible] تصميم [illegible] الصناعية

[illegible]س 2007.











MA9DOUM MAG'ROUB 7MAR